حسين جرود



رواية

الفصل الأول: الكتاب السماوي

-1-

لا أعرف الليل من النهار، الظلام في جميع الجهات، عيوني مغلقة أم مفتوحة؟ كم ساعة مكثتُ هنا؟ لا أعرف. تأتي صور متلاحقة كل عدة ساعات، لا أعرف ما الذي سأستفيده منها، طالما لا أستطيع الكتابة هنا. لكن، يجب أن تكتمل التجربة.

أسمع صوت سيارة تدب على الحصى. أشرد قليلًا: هل تعطل جهاز الإنذار من جديد؟ ثم أخرج بسرعة من الخزَّان، وأنا أحمل قدمي اليمنى التي يأكلها النمل. ألتفت نحو الطريق فلا أرى سوى ضوء ذهبي، يضربني كسيخ من نار. أغالب دوارًا خفيفًا وعمى مؤقتًا بسبب نور الصباح، ثم أجلس في أقرب مكان يصلح لذلك وأمسك كتابًا مدعيًا القراءة، مع أنها حيلة مكشوفة لعدم وجود شيء أشربه في تلك اللحظة، أو حتى منفضة سجائر بجانبي.

يقبل أبي ضاحكًا مع حسام الذي جاء ليوصله. ينزل أبي من السيارة بينما يمضي حسام مباشرةً دون أن يسلم عليَّ، أو يتكلَّم. يخبرني أبي أنه جاء لدهن أشجار الزيتون بالخلطة السحرية، وحبَّذا لو ساعدته، ما يعني نهارًا طويلًا من الأشغال الشاقَّة.

ارتديتُ أقدم بنطلون جينز وجدته، وكنزة بيضاء لتعكس أشعة الشمس، ونظارة شمسية لأحمي عيوني من قطرات ذلك الطلاء اللزج العجيب، الذي يملك تأثيرًا أسوأ منها. ورحتُ أطلي جذوع الأشجار، بينما يتسلَّى أبي بسقاية الفول والبقدونس، وتلك الأشياء الكثيرة التي يزرعها.

أستريح وقت الغداء، وآخذ سيجارتين من علبة سجائره المحلية الرديئة، فيأتي الإلهام، ولا أتوقَّف عن الكتابة حتى تمتلِئ أربع صفحات. يا لسخرية القدر، أيام أقضيها في ذلك الخزَّان، ثم تأتي النتيجة في يوم عمل لا إنساني كهذا.

كان أبي موظَّفًا، ترك عمله بعد ظهور الحركة الجديدة، خوفًا من الحواجز التي قد تعتقله فقط لانتمائه إلى منطقة واقعية، وراح يعمل في هذه المزرعة التي تبعد عن قريتنا سبعة كيلومترات، بعد أن تخلَّى عن راتبه التقاعدي.

لا تعود هذه المزرعة بدخلٍ كبير، إذ يحصل أبي على كل مصاريفه تقريبًا من حسام. طول المسافة أيضًا، جعل عمله هنا غير منتظم، وأقرب إلى المزاجية أحيانًا. قد لا تكون المزاجية أبلغ صفات أبي لكنها الصفة الوحيدة التي ورثتها عنه، بينما ورث حسام تقريبًا جميع الصفات الأخرى.

ترك حسام المدرسة مبكرًا ليعمل في مهن متفرقة، وعندما حصل على الشهادة الثانوية التي تقدَّم للحصول عليها بصفة «طالب حر»، كانت القرية أيضًا على موعد مع التحرير، ليحتفظ بتلك الشهادة بانتظار فرصة للدراسة. إنه يملك الآن دكانًا في السوق لبيع الملابس ومستحضرات التجميل، ويكسب جيدًا. لم يدر والدي أن حسام سيصبح منقذه بعد أن كان يعقد كل آماله عليَّ، قبل أن أترك كلية الهندسة، وأتفرغ لمشاريعي.

بالنسبة إلى حسام، كانت المزرعة هواية مكلفة، ولا يستفيد منها سوى بعض المنتجات والخضروات، أو قضاء يوم أو يومين في السنة، ثم راحت تمتد لتغدو شهرًا أو شهرين أيام استهداف القرية بالقذائف. بالنسبة إلى والدي، كانت المزرعة حلمًا قديمًا يعود ربما إلى عقدة نقص منذ الطفولة، عندما كان يرى كبار المزارعين يكسبون أضعاف ما يكسبه جدي، الذي لم يعمل بجدٍ قط. بالنسبة إليَّ، المزرعة منفى صغير فقط، اخترتُه بنفسي قبل أن أسافر.

أحيانًا يقول أبي مازحًا إنه لا يحتاج إلى كلب بوجود ديب، فمجرد وجودي في المكان يبعد الناس عنه، وقد امتلكتُ سمعة سيئة لم تأتِ من فراغ. في الشهر الأول لمقامي هنا، بدأ الأمر بمجيء صاحب خلايا نحل ليضعها هنا، حاولت الاعتذار منه بشتى الحيل والطرائق

فلم أفلح. حتى قلت له بعض الكلمات الجميلة، فمضى. لا أستطيع أن أشرح الأمر لجميع الناس، وحتى أنتم قد لا تفهمون.

في المزرعة، غرفة للأدوات ومنزل صغير وبئر ارتوازي وخزَّان يتسع لـ 96000 لترًا من المياه، وبعض الخطوط المزروعة بالخضروات، والكثير من الأشجار. الخزَّان الذي يشبه قبوًا تحت الأرض (أبعاده 6*3*5 تقريبًا)، كان أول ما لفت نظري عندما قرَّرتُ ترك الدراسة والاستقرار هنا.

يصرخ أبي عليَّ لأكمل العمل قبل الغروب، إنه يعرف أني سأتوقف عن العمل فور مغادرته وأنشغل بشيءٍ ما. لذا عليه أن ينتظر غروب الشمس ليمضي وقد أنجز مهمته. أنجزَها مجانًا أيضًا، بفضل مساعدتي التي لا تتوفَّر دائمًا.

وصل حسام متأخرًا ليصطحب أبي، فتنفَّستُ الصُّعَداء. قرَّرتُ أن آكل وأمشي قليلًا تحت ضوء القمر لأفكِّر في التجربة، وربما أكمل الاستماع إلى مسرحية «جسر القمر»، لكنني سقطتُ نائمًا بعد الأكل مباشرةً.

بالنسبة إليَّ، لا أحتاج إلى شراء شيء من خارج المزرعة. نادرًا ما أحتاج إلى الشاي أو المتة أو السجائر، أستطيع أن أعيش سنوات على الفواكه من

الأشـــجار والســـردين المعلَّـــب والخضـــروات التـــي تتجـــدَّد لوحـدها كمـا كنـت أظـن يومًـا، لكـن أبـي يصـرُّ علـى دعمـي بأشياء لا أحتاج إليها.

أتنــاول فطــورًا مــن الخبــز والنــوتيلا وزبــدة الفســتق، وأفكــر فــي كتــابي الــذي اقتــرب مــن الاكتمــال. يكفــي أن أخبــركم أن وزنــي يقـل عـن السـتين عنـدما أعـيش بمفـردي، ويقتـرب من الـ 65 عندما أعيش معهم، لتعرفوا حجم الكارثة.

أغســل الصــحون والأكــواب المتراكمـــة، وأدخِّــن ســيجارتين، ثـم أقـرِّر إكمـال التجربـة. سـتمرُّ أيـام قبـل زيارتهمـا المقبلـة، وقـد يكـون هـذا الوقـت كافيًـا، فلـم يبـقَ أمـامي الكثيـر مـن العمل.

أفـتح بـاب الخـزَّان، لأضــع رجلــي علــى أول درجـات السـلَّم، فأنزلق في الماء.

رسالة من تحت الماء

أسعدتم أوقاتًا

أنا ديب س.إليوت

سأغادركم بعد ساعتين، ولا تشغلوا بالكم بقصة غرقي في بركة المياه الصغيرة هذه. بعد قليل، سأغرق في بحر أكبر قليلًا، ولكن قبل ذلك سأروي لكم ما حدث. أن تعيش ساعتين على الأرض، يعني أن زمن القراءة أقل من ذلك. لذا أنا مستعجل.

قد تُنشر هذه الكلمات بعد مغادرتي، مع أني لا أثق بأحد؛ أنا أيضًا فعلتُ الكثير من الأمور غير القانونية، ولا أريدكم أن تسامحوني، ولا يهمني رأيكم أبدًا، إنني أخبركم فقط بما فعلتُه.

لم تكن الأمور يومًا قابلة للقياس بلغة الصواب والخطأ، كل ما حدث كان سقوطًا كبيرًا، كرةً تتدحرج، رمالًا متحركة... لا نستطيع أن نتجنب الموت، نستطيع فقط أن نقابله بتكشيرة أو ابتسامة، واقفين أو جالسين، نكتب أو نغني أو نأكل... الأمر بهذه البساطة.

لستُ من الديكة التي تظن صياحها يؤذن بحلول الصباح، فالصباح لم ينتظر موافقتي يومًا، ما أفعله شيءٌ مختلفٌ تمامًا، وسأشرح ذلك.

إنـــه الليـــل.. فقـــد مكثـــتُ ســـاعات فـــي الخـــزّان. اســـتغرقتْ عمليـــة تفريغـــه مـــن الميـــاه والـــتخلص مـــن الرطوبـــة أســـبوعًا كـــاملًا. يســـتطيع أبـــي ســـقاية الأشـــجار مـــن البئـــر مباشـــرةً، ويوجـد خـزّان صـغير لحاجـات منـزل المزرعـة، ولكنـه يصـرُّ علـى اسـتخدام الخـزّان الكبيـر. مـن سـابع المسـتحيلات أن أشـرح لـه مـا أفعلـه، فربمـا اتهمنـي بـالجنون، أو طلـب منـي العـودة إلـى القريـة. إذن، إنهـا المحاولـة الأخيـرة، والتفكيـر فـي هـذا يزيـد مـن التـوتُّر الـذي لـم يفـارقني يومًـا، وفكـرة أن هـذه الجلسـات قـد تسـفر عـن لا شـيء، تسـتحوذ علـيَّ... الجـوع أيضًـا، يجـد طريقـه بسـرعة. يبـدو أن أسـبوعًا مـن الطعـام العـادي نسـف كـل المعـادلات التـي عملـتُ عليهـا، وعـادت خلايـا جسـمي إلـى غبائهـا المعهـود بعـد أن تعبـتُ فـي ترويضـها. دائمًـا، يـأتي أبـي ليسـاعدني، فيخـرِّب كـل شيء.

أبـدأ برسـم خطـوط فـي الظـلام الـدامس. خطـوط ليـزر خضـراء شـبه عموديـة، يقطعهـا خـط أحمـر أفقـي مائـل قلـيلًا. أضـيف بعـض الألـوان الأخـرى، لكنهـا فـي الحقيقـة لا تتقـاطع، ولا يمـس أي خـط مـن تلـك الخطـوط غيـره، كأنهـا تحفـظ حـدودها فـي عـالم ثلاثـي الأبعـاد، يبـدو أوسـع كلمـا ركَّـزتَ علـى مسـافات أضـيق بينهـا، كالنسـيج. يسـبح رأسـي فـي تلـك العـوالم، وأفقـد الإحسـاس بالوقـت، وحتـى

بجسمي... ثم تنفجر الصورة. يسود ظلام دامس تنبعث من أطرافه بعض الغيوم البيضاء، التي تتشكل كالضباب أو الدخان أو الغاز المنوم البارد، لتأتي الصورة أخيرًا.

نجم يجلس في المقعد الأول في صفنا في المدرسة، وسارة تجلس خلف الطاولة على كرسي المعلمة، وأنا أنظر من النافذة، ثم أقترب منهما لنخوض حديثًا لا أسمعه. صورتهما غائمة أيضًا مع بعض السطوع الخافت، والصف يبدأ بالتلاشي حتى يقتربا مني، ونصبح ثلاثتنا في الخزَّان، وما زال الحديث غامضًا.

أفتح باب الخزَّان، وأخرج... أستريح قليلًا، وآكل بنهم كجندي عائدٍ من الحرب، فلقد انتهت القصة، والكتاب أمسى جاهزًا. الصفحات الأربع التي كتبتُها يوم زارني أبي منذ أسبوع كانت ممتازة، وتصلح خاتمة للكتاب.

أما نجم وسارة! ما هذه المزحة السمجة؟ لم أرَ سارة سوى مرتين في الشارع منذ انتقالنا إلى مدارس مختلفة، أما نجم فكثيرًا ما رأيتُه، ليلسعني دومًا بتعليقاته الجارحة.

أعرفُ سارة مذ كنا صغارًا في روضة الأطفال، وكنا نقطع الطريق أحيانًا معًا. إنها أكبر مني بعام، وكانت تصطحب معها أخاها الأصغر دومًا. لذا لم يكن صعبًا عليها أن تعاملني كما تعامله، أنا الطفل البكَّاء الذي كانت تحاول إسكاته.

أمـا نجـم، فكنـتُ أراه دومًـا فـي تحيـة العلـم فـي الصـف الأول. منـذ عبـوري بـاب المدرسـة، أعـرف أن هـذا الولـد – الـذي لا يزيـد طولـه عـن طـولي – يـؤدي تحيـة العلـم ليـردِّد وراءه مئـات الطـلاب. يـأتي دائمًـا سـعيدًا ضـاحكًا نشـيطًا، مرتـديًا بدلـة أغمـق قلـيلًا ممـا نرتديـه جميعنـا، واضـعًا كتافيـات حمـراء بـأطراف صـفراء لا يملـك مثلهـا أحـد غيـره أيضًـا، ليبـدو نقطـةً مضـيئةً أمـام حشـد غبـي. يـردِّد بصـوته الجهـوري: «دولـة عظيمـة واحـدة»، أكـون حينهـا قـد وصـلتُ إلـى مكـان اصـطفاف طـلاب صـفي، فـأقول: «ذات حكومـة فاسـدة». أمـا الجملـة التـي كنـتُ أحبُّهـا وأحسُّـها أكثـر شـعرية مـن غيرهـا بـين جميـع الشـعارات، فتتكـون مـن كلمـة واحـدة، هـي: «أهـدافُنا»، لأنـه يردِّدهـا هكـذا منفـردة، دون أن يسـبقها أو يلحقهـا أي شـيء ولـو التقـاط نفـس، ثـم نـردِّد خلفـه وقـد بلغنـا ذروة سـعادتنا: «قبضـة قويـة متماسـكة»، ثـم ينطـق الشـعار الأخيـر: «قائـدنا إلـى الأبـد»، فنشـعر بارتيـاح لاقتـراب هـذا الطقـس اليـومي مـن الانتهـاء، ونـردد أيضًـا: «بيكاسـو المبـدع المُجِد».

أعـرف أن الاسـتمرار فـي هـذا السـرد سـيقتلكم مـن الملـل، ولكنـه ضـروري لأخـذ فكـرة عـن تلـك المرحلـة، وكمـا قلـتُ لكـم معرفتـي بهـم لـم تسـتمر طـويلًا، ولكـن حتـى الآن لـم أذكـر شـيئًا مهمًـا. كـان دوام المدرسـة ينقسـم إلـى قسـمين:

صباحي ومسائي. وعندما تكون في الدوام المسائي، قد تمر عليك الساعات الأخيرة سنوات بسبب الجوع والملل. هذا شيء يستحق الذكر مثلًا، ويفوق تأثير نجم وسارة بعشرات المرات.

بعد سنة، أصبحنا ثلاثتنا في صف واحد، وكان في الواقع صفهما وأنا الضيف الجديد الذي جاء بعد أن اضطرت معلمتي لإعادة تدريس الصف نفسه لتعلم ابنها بنفسها. نتيجة ذلك، دخلتُ مملكة المعلمة نورة التي تختلف عن جميع المعلمات في المدرسة، إذ تملأ السبورة بأشياء كثيرة عن المفردات المترادفة والمتضادة، رغم أننا بالكاد نفهم معناها، وتقيم مسابقات في جدول الضرب، مع أننا لم نحفظه بعد.

وضعتني المعلمة نورة مع نجم في المقعد الأول؛ صدفةً ربما، أو بسبب توصية من معلمتي السابقة، أو ربما بسبب طولنا الاستثنائي! لكن هذا الوضع سيبقى غير مريح لنا أبدًا.

كان نجم منافسًا لا تمكن هزيمته، إذ سيبقى الأول على الصف مهما فعلنا، ولن تنقص علاماته يومًا عن الدرجة الكاملة. سارة لم تكن مضطرة لمنافسته، ومع هذا كانت تبكي عندما تضيع علامةً ما، ولا أعرف لماذا كانت العلامات تسقط من سارة أحيانًا دون أن تفارق نجم يومًا. أما أنا فكانت درجاتي التي تتراوح بين 9 و10

وحتى أقل من ذلك كثيرة، حتى اعتدتُ عليها. وفي نهاية العام، كان نجم منفردًا في المرتبة الأولى، وأنا وسارة وآخرون في المرتبة الثانية.

دخلتُ إلى الصف الثالث لاكتشف أن المعلمة نورة ذهبت في إجازة أمومة (انظروا كيف يتحكم أولاد المعلمات بنا حتى ولو لم نراهم). يومها فقدت جميع امتيازاتي، وأعِدتُ إلى المقعد الثالث، ولم يعد أحد يتكلم معي تقريبًا. حتى الطالبان اللذين جلستُ في مقعدهما بالكاد يتحدثان معي، ربما عن شطائر الزبدة والسكر التي أحبها، ثم ينظران إليَّ باستغراب، أو عن غريندايزر، تريند تلك الأيام.

في تلك الأيام، بدأت التفاصيل المحيطة بي تتضخم، بعد أن تجاهلتُها طويلًا. أنا في مدرسة يتبوَّل التلاميذ فيها على صنابير المياه، ولم أشرب الماء فيها أبدًا. جدران طويلة وسجن كبير عادت إلى الظهور بعد أن بدا لي أني تجاوزتها. حقيقة أني وحيد ويتيم باتت ساطعة في تلك الأيام. مرت شهور كئيبة، وتراجعتْ درجاتي كثيرًا... في حين أصبح كل من سارة ونجم في عالم آخر، ولفتا نظر المعلمة الجديدة منذ اليوم الأول.

كانت نظرات سارة ترثي لي أحيانًا، لكنها لم تتدخل. أما نجم، فلم يعد يراني حرفيًا. استمرَّ الوضع هكذا، حتى عادت المعلمة نورة، وعدتُ لأقضي سنوات معها، لا

تخلو من مشكلات كثيرة مع نجم، إذ كان لزامًا علينا أن نتقاسم المقعد الأول، ولكنـي أشفقت عليه عندما تغير شعار المدرسة وطلب مدير المدرسة الجديد من طالب أطول قليلًا منه ترديد الشعار؛ حدث هذا بعد وفاة بيكاسو الأب واستلام دالي رئاسة الجمهورية. وكذلك سارة التي كانت تهديني الصور الجميلة التي تعثر عليها في علب العلكة وأكياس الشيبس، ولكنها كانت تختار الصور الجميلة دون أن تعلم أن المهم هو جمع الصور النادرة التي كنا نسميها «مفقودة»، وطبعًا، لم أقل شيئًا. من جهتي، بت أصادفها على طريق المدرسة، ولا أسير معها بحجة أني أصطحب حسام معي.

نعم، المعلمة نورة كانت أكثر شخص دعمني في طفولتي. لم يخلُ الأمر من لحظات سوء الفهم، كضربها لي على يدي اليمنى أربع مساطر يوم نسيتُ الوظيفة، لأن يدي اليسرى كانت مكسورة. أو يوم زارتني عمتي في المدرسة، لتسأل عن أحوالي، وشعرتُ بخجل جديد بينما كانت هي سعيدة جدًا عندما اكتشفتْ أن تلك الرعاية الاستثنائية أولتْها لطفل يتيم، وأن أهلي أرسلوني إلى المدرسة ليتخلصوا مني فقط. لكنها في النهاية، غادرتْ.

نعم، بعد سنوات، غادرتْ المعلمة نورة، وتركتْنا. قضينا آخر صف في تلك المدرسة مع سبعة مدرسين مختلفين،

ما سمح بتقاسم النفوذ. حصل نجم وسارة على إعجاب معلمة اللغة العربية، بينما كنتُ التلميذ المفضل عند معلِّمَي العلوم الطبيعية والعلوم الاجتماعية، وكذلك –إلى حد ما– معلِّمة الرياضيات التي كانت تحب الجميع، وهنالك طلاب حصلوا على إعجاب مدرِّسي الرسم والموسيقى والرياضة.

هل انتصرت إذن؟ لا أبدًا، فقد كانت معلمة اللغة العربية هي المسؤولة عن صفنا، وراحت تسخر من خجلي وطريقة ضحكي وحتى جهلي بالإعراب. نجم يستمتع بذلك المشهد، وهو المضطر إلى انتظار نزولي إلى الفرصة لينظر إلى إجاباتي على أسئلة وظيفة العلوم، وسارة تنظر بدهشة إلى كمية الغباء التي أملكها في اللغة العربية، بينما كنت في الدرس السابق شيئًا آخر. في النهاية، صرتُ أحمل دفتر العلوم معي إلى الفرصة، وهذا لا ينفع... ستبقى العلامة الكاملة من نصيب نجم، بينما باتت سارة تلفت نظر جميع طلاب المدرسة، وحتى المدارس الأخرى.

كانت السعادة تغمرنا، والابتسامات لا تفارق وجوهنا، يوم التقينا آخر مرة لاستلام آخر جلاء مدرسي، ويبدو أننا قررنا حينها ضمنيًا أننا لن نرى بعضنا أبدًا بعد ذلك.

قد أدَّعي بعض الفهم وأقول إن سارة ونجم يمثلان الملاك والشيطان، الأم والأب... ولكن الأمر لا يحتاج

إلـى ذكـاء لأقـول إن سـارة أجمـل شـخص عرفتـه، ونجـم أول شـخص سـيء عرفتـه فـي حيـاتي. مـا الـدور الـذي يمكن أن يلعباه في كتابي؟

نجم

أن تكونَ صديقًا لنجم أمر متعب، شخصٌ ينجح في كل طريق يسير به، لا تقل علاماته يومًا عن العلامة الكاملة، محبوب من الجميع، مدلَّل الصف والمعلِّمة. خفَّة الظل، والمعرفة الواسعة التي يمتلكها... لأن أباه مدرِّس قديم، وأخوته طلاب في الجامعات. إنه الولد الذي تنجبه الأسرة في أواخر أيامها للتسلية، وتسمِّيه «آخر العنقود». جميع الكلمات تغدو في فمه أجمل، فهو لم يقرأها أو يخترعها، بل سمعها في سياق معين، ليستخدمها بعد ذلك في سياق آخر بطريقة أذكى.

*

سارة

قد يكون وجود سارة مربكًا أكثر، فهي ملاك، ولا يمكن أن تمسَّهُ ولو بكلمة.

قريتنا؛ قرية «الأسوار»، تتعرض للقصف باستمرار، إذ يقصفها الطيران الحربي والمروحي ما لا يقل عن مرة أسبوعيًا، بحجة وقود مقرات للتشكيلات الواقعية، والأهم من ذلك وجود حاضنة شعبية واقعية عريضة كما يزعمون. أحيانًا يحدث ما نسميه «حملة»، إذ تتعرض القرية للقصف شهورًا متواصلة، عدة مرات يوميًا. عندما يحدث هذا، يأتي أبي وعائلته إلى المزرعة، مما يخرب جميع مخططاتي.

في اليوم الأول، طبخوا كبسة بالدجاج، وينوون غدًا أن يطبخوا شيخ المحشي. لا تستطيع أن لا تأكل، ما الذي ستقوله لهم، لن يفهم أبي ذلك، فما بالك بزوجته أو حسام أو لبنى. في تلك الأيام، كنا نستعمل مولدة للكهرباء قبل وصول ألواح الطاقة الشمسية، أقضي بعض الوقت مع لبنى نلعب بألعاب الكمبيوتر، وكل بضع دقائق، أنظر نحوها وأقول: متى أصبح لي أخت؟ لقد غبت سنين طويلة، إذ عشت فترة عند أهل أمي في قرية «البر»، ثم انتقلت إلى «قلب الشمال» لمتابعة الدراسة.

الطائرة مؤذية، ولكنها أبعد منهم. لا أنكر أني أراقبها بلا مبالاة قاتلة كأن الأمر لا يعنيني. ولكني سأعود إلى القرية، وأجد شيئًا ما يشغلني.

لأقدِّم سببًا مناسبًا لعودتي، ذكرتُ أمام أبي أني سأعمل في الصحافة، وطبعًا صدَّق كلامي، فهي مهنة متاحة لجميع السورياليين حاليًا (تلاحظون هنا فداحة المصيبة فالواقعي مجبر على تسمية نفسه بالسوريالي ما يسبب فصامًا أحيانًا، فقد تماهى اسم البلاد مع الحركة السوريالية منذ زمن بعيد، لذا نجد صعوبة في شرح معنى الواقعية). وفعلًا تواصلت مسبقًا مع الإعلامي ربيع ليساعدني على نشر كتابي، أو تقديم فرصة لكتابة شيء آخر.

زارني ربيع عدة مرات في منزلنا في القرية، وكل مرة كان يترك سجائر ملفوفة يدويًا، بحجة أنه يتركها لأتذوَّقها، لكنها في الواقع كانت طريقته في مساعدتي، أنا الذي كنتُ أعيش بلا دخل تقريبًا. مرة وجدت باوندًا عالميًا فردًا في بيتنا، قد تركوه للذكرى، بعد أن حصلوا عليه بطريقة ما، فاشتريت به علبة سجائر وعلبة عصير كتبوا عليها «طبيعي»، وليس لها أية علاقة بالطبيعة. زارتني عمتي يومًا فطلبتُ منها ثمن علبة سجائر، وأنا محمر خجلًا.

بدأ المتسولون الصغار يظهرون في الشوارع، وهي ظاهرة غريبة على قريتنا. كنت أرى الكثير منهم في «قلب الشمال»، وكان صديقي رياض يقول لي: «إنهم منايك، يمكن أن تفعل بهم ما تشاء بخمس ليرات»،

فاستغرب خروج تلك الكلمات من فم رياض الذي كنت أعده المخضرم والطيب والأكثر لطفًا بين جميع زملاء الجامعة. المشكلة أنك عندما تراهم تتذكر أن جيبك خالٍ أيضًا، وتعرف أنك شحاذ كلما قابلتَ شحاذًا، وتمر الأيام.

الخبز أيضًا أصبح نادرًا، وصرت مضطرًا إلى التسجيل في مجلس القرية الجديد للحصول على إذن باستلام كيس خبز أو اثنين يوميًا بسعر رخيص. لحسن الحظ كان جارنا يوزع الخبز فأعطيته رقم هاتف المنزل ليتصل بي وقت وصول الخبز. إنها الحرب وما تحمله من مشكلات تصل إلى جميع تفاصيل الحياة. بعد نشوء الحركة الواقعية، أصبحت الجمهورية السريالية مقسمة إلى أقسام، وقريتنا تتبع للحركة الواقعية الجديدة الحرة.

كنا جالسين في مقهى حازم، التي نسميها «كرخانة المحبين»، وهي المكان الوحيد الذي آواني في تلك الأيام، وأحيانًا أكثر من منزلي، عندما دخل أحد ما ليسخر من حازم (صاحب المقهى). وقال لي: أليس كلامي صحيحًا؟ فأجاب حازم بدلًا مني: إنه مثلنا أيضًا. كدت أنزلق لأشرح لهم شيئًا، ثم لذت بالصمت. في تلك الأيام، كانت الأسماء تُلصق على الأشخاص، ويبدل الناس انتماءهم إلى مدارس الواقعية، ثم يتقوقع كل واحد مع شلة تشبهه، سواءً أكان مدنيًا أم مسلحًا،

وتحتاج إلى دراسة عامة عن المتلقي قبل أن تقول جملة بريئة.

أعطاني ربيع البريد الإلكتروني لمجلة حديثة الإصدار لأرسل إليها بعض المواضيع، ونبهني إلى ضرورة إرسال أشياء واقعية ومفيدة وذات أثر، أي تقارير أو مقالات أو صور، مؤكدًا: «رغم أهمية ما تكتبه، واعتدتَ على كتابته، فإنه لا يساوي شيئًا والمجلات لها نهج مختلف». حذرني أيضًا من الإكثار من كتابة الشعر إذا أردتُ أن يُنظر لي بجدية.

تزوج حسام في المزرعة واستقر هناك، ووعدني أبي أن يترك لي المنزل الذي أعيش فيه حاليًا من الآن فصاعدًا، أي منزل القرية، لأستقر بدوري. مع أنه كان يتمنى أن أعيش في مكان آخر، لا يتعرض للقصف، ولكنه سئم مجادلتي على ما يبدو.

عندما دخل أبي آخر مرة إلى المنزل، وجدني نائمًا في غرفة الجلوس، بعد أن أفرغتها من الأثاث كله، وقد أغلقتُ جميع الشبابيك، ووضعت غطاءً على وجهي في ذلك الحر الشديد، وسط فوضى عارمة من الأكواب ومنافض التبغ، فقال: «انظروا.. كيف ينام».

لم أقل له شيئًا عن فوضى المبدعين، فآخر مرة شرحتُ له نظرية: «عشْ في خطر»، قال لي: «أكلما قرأتَ

عبارة غبية لأحد هؤلاء الفلاسفة، ستجرّبِها». قلتُ له: «إنها الطريقة الوحيدة لنثبتَ خطأها».

في الجريدة، أو بسببها أو من طريقها، تعرَّفتُ على أشخاص كثر. لكن ظلَّ ربيع من يربطني بهذا العالم رغم كل شيء. ربيع شخصٌ صافٍ جدًا لا يكذب، أستطيع أن أثقَ به، أستطيع أن أسمع ما يقوله عما يحدث من أمور غير مفهومة، وأعرفُ أن تلك الأقوال نابعة من شخص يحترق. لذا لم أتردَّد لحظة في التعرُّف على قريبه وسام، عندما رأيتهما يرفعان لافتة في مناسبة ما.

جلستُ مع وسام عدة مرات في «كرخانة المحبين»، فقد كان يحب الأحاديث الفكرية، وكنت أخبره عما أقرأه، بينما يخبرني عن مقالات يود كتابتها. وكلما سمعنا صوت قذيفة أو طائرة أسأله: لماذا فقط قرية «الأسوار»؟ لماذا كل هذا الحقد عليها؟ كان وسام قارئًا أكثر منه كاتبًا، لا خبرةَ لديه تقريبًا في الكتابة، لكنه يملك ضميرًا يقظًا ووعيًا ورغبةً في التغيير. مقالاته ليست أكثر من ثرثرة في جلسات المثقفين، وليتها ثرثرة حقًا. لكني استمتعتُ بقراءتها لأنها صادقة، بينما كانت مقالاتي تعتمد على جمال الشكل والأسلوب أيًا كان موضوعها، إن كان هنالك موضوع أصلًا.

المهم من كل ذلك، أنني صرت أقبض كل فترة مبلغًا جيدًا يكفي لأدفع ثمن السجائر والطعام، وأخبرتُ أبي بذلك كي لا يكلف نفسه عناء زيارتي. حسام أيضًا (أقصد أخي، كي لا تخلطوا بينه وبين وسام) صار مشغولًا جدًا بعد زواجه، ولا وقت لديه ليعمل سائقًا لأبي.

بين الأوراق القليلة الباقية من أيام كتابة الشعر، وجدتُ ورقة كتبتها يومًا على لسان حسام، بوصفها رسالة تعبر عن فشل قصة حبه، وعندما قرأها في ذلك اليوم، ندم على أنه طلب مني كتابة شيء ما له.

أريدُ أن أدمِّرَ هذه المدينة
لكي أفصِّلُها من جديد.. على مقاس قلبَينا
وأزرع في كلِّ قلبٍ.. قُبلةً
وفي كلِّ مفترقٍ.. شجرةً
وفي كل نافذة
عاصفةً من ضباب

إنها آخر قصاصةٍ لدي.

أخرجتُ تلك الورقة، ومزَّقتُها.

تحدث وسام معي على ماسنجر، وكان يكتب مقالًا في نقد شخص معروف. قلت له: «اسمع.. اسمع.. هذا المقال ينتقد فلان، ويقول إنه فاسد. هذا أمر خطير، ولا علاقة للصحافة به».

لم أنتبه للجمل الكوميدية التي قلتها، وطبعًا كان وسام يفهم أن لديّ خبرة ما في الكتابة، رغم أن كلينا مبتدئين في القراءة والصحافة، ولكنه لم يكن يكتب أصلًا لأجل الكتابة. وسام كان يريد التغيير، ويتحدث مثل العجائز أحيانًا.

أنهى وسام المحادثة بجملة تدل على أني خيبتُ أمله، وكانت تلك آخر مرة نتحدث فيها، فقد حدث ما خشيته، واختفى كفص ملح وذاب.

عدتُ بعدها للقاء ربيع، فهو من عرفني على وسام، وصارت جلساتنا طويلة، نتحدث فيها عن السياسة على غير العادة، ودائمًا يترك في النهاية بعض السجائر الملفوفة، بينما يصر على ضرورة أن أشرب القهوة دون سكر، دون أن يعلم أني أشرب الشاي دون سكر، ثم يبدي إعجابه بملابسي التي لم تتغير منذ عرفني، ما يعني أني لا أسعى وراء الأموال.

علـى النقـيض مـن ربيـع، طلـب منـي صـاحب المجلـة أن أنخـرط بـين النـاس أكثـر، وأكتـب مـا يريدونـه بالضـبط، أي أنقـل معانـاتهم بألسـنتهم، وأغيـر ملابسـي. لـم أخبـر أحـدًا أننـي لا أكتـرث بمـن يرانـي هنـا تقريبًـا، فأنـا لا أعـرف أحـدًا فـي القريـة، وعنـدما يسـألني أحـد مـا عـن اسـمي، أقـول: أخو حسام.

مـا حـدث مـع وسـام مـر ببسـاطة لـم أسـتوعبها، إنـه لـم يرسـل المقـال إلـى جريـدة، فلـو فعـل كـان سـيرفض وينتهـي الأمـر، أو ينصـحوه بكتابتـه بطريقـة لا تمثـل خطـرًا علـى حياتـه. وسـام حمـل المقـال وتوجـه إلـى بعـض الأشـخاص الـذين تربطـه بهـم اهتمامـات فكريـة، وظـن أنـه بتلـك الطريقـة سيوصـل صـوته، فلـم يسـتفد سـوى انتشـار الموضـوع فـي قاعـات وغـرف مغلقـة بـين أنـاس لا يريـدون حاليًـا تصـفية الحسـابات، فـانتهى الأمـر بانتشـار الخبـر، دون أن يكتـرث بـه (أو يتحمـل مسـؤوليته) أحـد مـنهم. نعـم انتهـى الأمـر، بضياع وسام.

لـم يكـن المـوت فـي تلـك الأيـام حادثـة مفاجئـة، بـل هـو القاعـدة. كـل يـوم تسـتمتع إلـى حصـاد قنـاة «البحيـرة» لتحصـل علـى رقـم مـا: 132، 155، 211، أيًـا يكـن. وقـد يتضـاعف هـذا الـرقم فـي أيـام خاصـة كيـوم ارتكـاب مجـزرة بأسـلحة ممنوعـة دوليًـا فـي محـيط العاصـمة، ثـم مـرت تلـك

المجـزرة بطريقـة جعلتنـا مـوقنين بـأن أحـدًا لـن يكتـرث لتلـك الأرقام.

أن لا يكتـرث أحـد للأمـوات، يعنـي عـدم الاكتـراث للأحيـاء أيضًـا. فـلا أحـد يصـدق تلـك المشـاعر «المشـلَّخة» التـي تتجـه نحـو حـي أو ميـت مـدة 24 سـاعة علـى مواقـع التواصـل الاجتمـاعي، ولا أحـد يهـتم فـي الحقيقـة حتـى لتقـديم عـزاء أو تهنئـة. إنـه سـباق نحـو مجهـول، سـباق عبثـي يـركض الجميـع فيـه، وكلهـم يريـدون التغييـر مثـل وسـام، نتيجـةَ دافـع حقيقـي بالتأكيـد، ولكـن نتائجـه المأساوية حقيقية أيضًا.

أن تعمـل فـي مثـل هـذا الظـروف، لـيس أمـرًا سـهلًا. فكانـت تمـر أيـام جميلـة أكتـب فيهـا كثيـرًا وأقابـل بعـض الأشـخاص الجـدد، وتمـر أيـام أخـرى أكتئـب فيهـا وأفقـد القـدرة علـى التواصل مع الناس.

يومًـا مـا، توقفـت سـيارة BMW – مـن تلـك السـيارات الجرمانيـة المسـتعملة التـي بـدأت تنتشـر فـي تلـك الأيـام – أمـام مقهـىً صـغير قريـب مـن بيتـي كنـت أجلـس فيـه أحيانًـا، ونـزل منهـا اثنـان، أحـدهما نجـم، صـديق الطفولـة. كـان يرتـدي زي مسـلحين، فتمنيـت أن يشـتري مـا يريـده ويـذهب، لكنـه اقتـرب منـي وأخبرنـي أنهـم يمسـكون الإعلاميـين، وعلـيَّ أن أحـذر، وكـان فـي نظراتـه بعـض الاسـتعلاء والتشـفي. إنـه يعمـل طباخًـا لـدى إحـدى

الحركات الواقعية (الحركة نفسها الذي أخفت وسام)، ولا أعرف هل يعاملونه بوصفه ندًا أم تابعًا، ولكن يبدو أنهم سلموه سيارة، إذن وضعه جيد. جميعنا في هذه الأيام نتقن لعبة التجاهل، ولكن لا بد أن تأتي بعض الأحاديث الغادرة، مثل الذي حدث منذ قليل، وهذا أسوأ ما في عودتي إلى القرية. ربما أراد النصيحة فحسب، لكنني شربت السم في جميع الأحوال.

اقترحتُ على ربيع أن نحوِّل تلك الأرقام التي ترد في نشرات الأخبار اليومية إلى رسم بياني خماسي الأبعاد علَّها تصبح عملًا فنيًا ذا معنى، فأعجب بالفكرة، وبدأنا بتدوينها.

في تلك الفترة، راودتني كوابيس كثيرة، ولم أعد أعرف عندما أقرأ خبرًا على الشاشة، أو أتحدث مع شخص في الشارع ما يقوله حقًا وما يقصده، وهل يحدث الأمر في الحقيقة أم في الأحلام. أحيانًا تمرّ بي أيام دون نوم، أكون مكتئبًا في الليل، سعيدًا عند الفجر، جثةً في الصباح، وأتابع اليوم التالي برأس قديم أحمله منذ البارحة، ويصبح ثقيلًا جدًا وساخنًا وقت العصر – يكاد ينفجر.

كل شيء كان يمكن أن يمر، لكن أن يصلوا إلى أحلامي الجنسية! رأيت سارة في الحلم عدة مرات، فمن الصعب رؤيتها في الشارع. لماذا سارة بالذات؟ فهي

مسافرة. دائمًا تظهر في السرير مع زوجها، الذي يطلب منها طلبات غريبة، ما أدى في النهاية إلى طلاقهما.

ديب س.إليوت

أنيابي الزرقاء

شعر

نعدُّهم نجومًا
فيتساقطون
ويبقى الليل لنا.. والغناء

إهداء إلى رفيف

أردت الخروج من تلك الحالة بأي ثمن، ولم أجد أمامي سوى «الكتاب السماوي»، الذي نشرت مقاطع منه سابقًا في بعض المجلات، ولكن نشره كاملًا كان أصعب بكثير. لقد اخترتُ هذا العنوان ليعارض عنوان كتاب معروف لأحد رؤساء دول المنطقة الذين قامت ضدهم الحركات الواقعية، إذ كان كتابه يتحدث عن اللون الأخضر، فاخترتُ من جهتي اللون السماوي. إنها مسألة ألوان، وليس في الأمر أية علاقة بالدين.

كان الكتاب نوعًا من الشعر الرؤيوي، يشبه نصوص جبران خليل جبران؛ بعض قصائده موزونة وبعضها جمل عادية، إذ يحق للعبقري أن يعبِّر كما يشاء. وقد نشر بسهولة بعد تغيير العنوان، وحذف بعض الفقرات، ونسيان سبب كتابته، وقد غيرتُ اسمه أيضًا إلى «أنيابي الزرقاء».

أرجوك لا تشعر بالصدمة. مهما خاب أملك بي، هذا لا يعادل شيئًا من خيبة أملي بنفسي. أذكر يوم جلستُ أمام الناشر، وهو يقرأ:

لم تستبدَّ فإني

قد صرتُ أعبدُ جوعي

قد كنتُ قبلكَ شيئًا

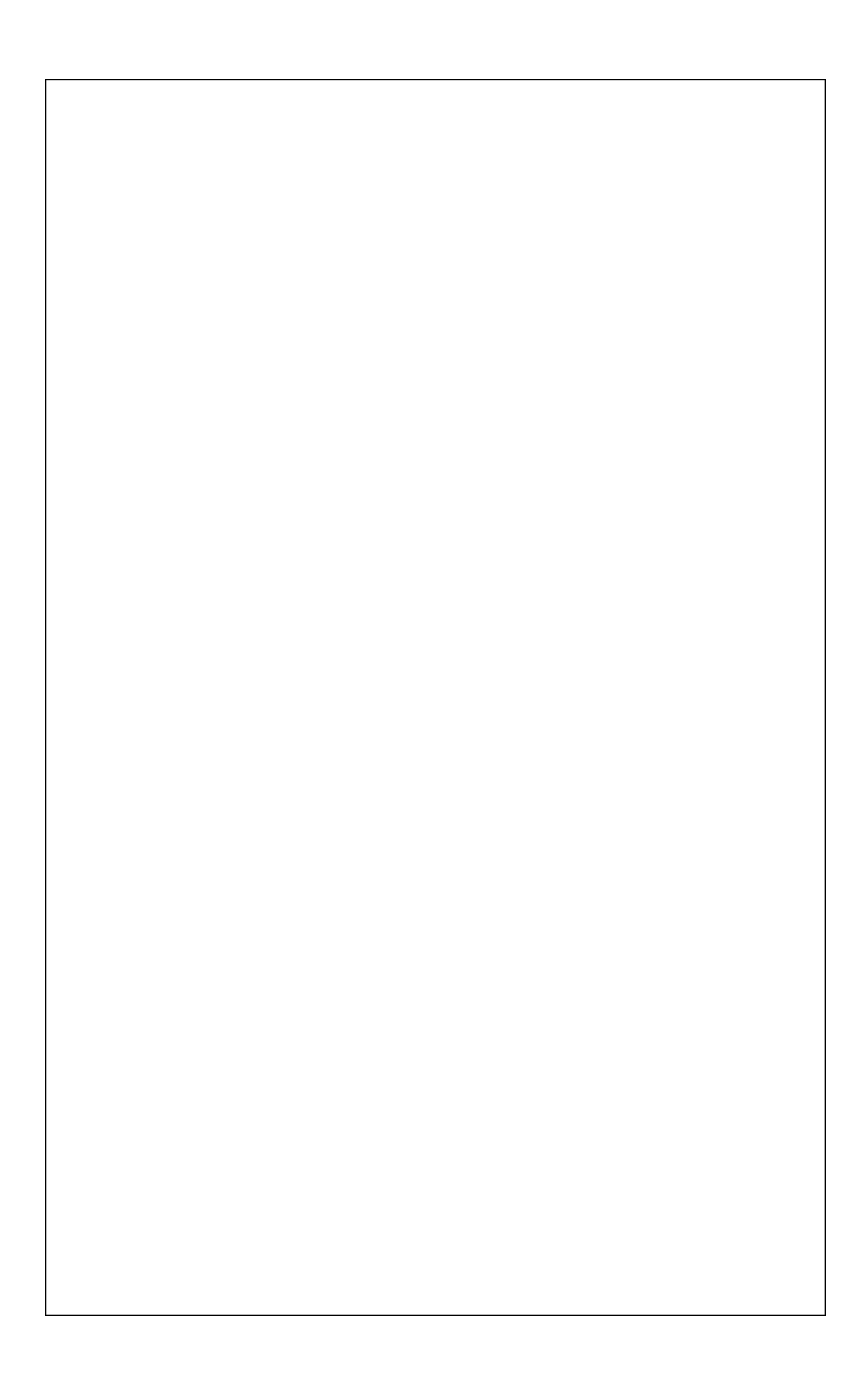
... وانطلقت ضحكاته بعد ذلك. أخبرتُه أن كلمة «شيوعي» معناها هنا ضياعي أو انتشاري، والمقصود معنى الكلمة لغةً لا اصطلاحًا، ثم أن اسم «إليوت» كافٍ لتوضيح ذلك. تكرَّر الأمر نفسه مع جمل أخرى حتى بتُّ متيقنًا أننا لكثرة ما نملكه من تابوهات واصطلاحات وكراكيب مضطرون لاستعمال نصف اللغة فقط.

يتصل غيث بي الآن، وأنا أكتب هذا...

- قلت لي «الناشر» (ويضحك)
- ألن تدعوني وشأني حتى الصباح؟!
- لا مشكلة.. ولكن كي لا تطول القصة كثيرًا أبلغ القارئ تحياتي، وقل له أنك أنت الناشر، وأنك من ارتكب جريمة الرقابة الذاتية بحق نفسه.
- ألن تفسد القصة هكذا؟
- الناس يريدون قصة ولا يريدون الحقيقة... (يفكر) لماذا؟ أخبِرْهم الحقيقة، ربما ستبدو شجاعًا أكثر. في أي صفحة كنت تنوي أن تكشف الأمر لهم؟ ماذا لو نسيت؟ في حال نُشرت هذه الأوراق ستنجح كيفما اتفق...
- لا الأمر ليس توثيقًا فقط
- لماذا لم يكتبها صديقك المعتوه، إنه شاعر حقيقي (يقول متصنعًا الطيبة والبراءة)
- غيث.. اغرب عن وجهي...

فشـل الكتـاب فشـلًا ذريعًـا. لـيس أنـه لـم يُقـرأ، بـل كانـت المشـكلة أن جميـع عباراتـه فُسـرت تفسـيرًا سياسـيًا بعـد كـل ذاك الحـذر، وأنـا الـذي كنـت أقصـد منهـا معـاني وجوديـة وميتافيزيقيـة عميقـة. يظـن الشـاعر نفسـه مختلفًـا، يمـر بتجـارب مختلفـة، لتنـتج عنهـا آراء جريئـة ومختلفـة، لكنـه فـي الحقيقـة لـيس أكثـر مـن جهـاز لالتقـاط الكلمـات، وقـد لا يملك شيئًا من تلك الحرية التي يتخيلها.

تحوّلـت قصـائد الحـب إلـى قصـائد ثوريـة، وتحـدث النـاس عنهـا أيامًـا، ثـم نسَـوا أمرهـا. وانتهـت تجربـة الخـزّان إلـى لا شيء تقريبًا، وأصبحت دفاتري فارغة تمامًا.



الفصل الثاني: المعتوه

-1-

وصلني جهاز إلكتروني غريب في صندوق كبير، ظننته ثلاجة في البداية أو ما شابهها. لقد وصل من طريق التهريب، من «قلب الشمال»، لينتهي إلى منزلي في قرية الأسوار، وقد أرسله رياض زميل دراستي.

عرفتُ أنه أحد تلك الأشياء التي يعمل عليها، ولم تكن لديَّ أية رغبة بعد كل تلك السنوات في التفكير بهذه الأمور. وضعت الجهاز في الغرفة الخارجية من المنزل، تلك الغرفة ذات الباب الحديدي التي نستعملها لتخزين الأشياء القديمة، بعد أن تأكدت أنه مطفأ ولا يصدر أية إشارة بأن قربت بعض مستقبلات الإشارات الكهربائية والمغناطيسية منه. عندما يحتاج رياض إلى جهازه سأرسله إليه، لكن أنا سأسافر، ولن أعود. يجب أن تنتهي قصتي مع هذه البلاد، بل يبدو أنها قد طالت زيادة عن اللزوم.

قد لا يعود رياض أبدًا من الجيش السريالي، فقد اضطر إلى الالتحاق به بعد فشله في التسجيل في الماجستير. وأنا منذ حادثة وسام بدأت أفقد شغفي تدريجيًا، ولا بد من تغيير هذا الوضع الذي أعيش فيه، وقد لا أعود أبدًا إلى هنا.

سافرت إلى بلاد الكاجو (أقرب دول الجوار)، بعد أن أخذت مبلغًا جيدًا من أبي، وأخبرته أنها آخر مساعدة سأتلقاها منه. أردتُ فقط ما يكفيني لأعيش شهرًا، وبعدها سأتدبر أمري. بعد وصولي، سأقبض ما تراكم من ثمن المقالات الأخيرة، ما يكفيني عشرة أيام أخرى، فقد اعتزلتُ الكتابة أيضًا. بعد ذلك، سأعمل في بلاد الكاجو، أو أجد طريقة للسفر إلى مكان أبعد.

بعد وصولي إلى العاصمة بأسبوعين، علمت أن سارة تعيش في مكان قريب. حاولتُ التواصل معها، ونجحت بعد جهد، وتذكرتني بصعوبة، فقد تغير شكلي كثيرًا، وأبدو أكبر من عمري بعشرين عامًا على الأقل. وفي الحقيقة، لو لم تقل سارة ذلك لما انتبهت.

لم نتحدث عن حياتنا الخاصة، فقد كنت أعلم أنها مطلقة، ومع ذلك قالت إنها متزوجة. طبعًا، أنا لستُ هنا لأعرف: هل كانت سارة تمارس الجنس، أم لا؟ قلتُ لها مباشرةً إن هدفي من المكوث هنا هو محاولة الوصول إلى بلاد الإغريق. كي لا تضيع الوقت، قالت لي دون مقدمات: «هذا صحيح، لا مكان لك في قرية الأسوار أو حتى في بلاد الكاجو»، ثم طلبتْ أن أترك عنواني، لترسل لي مبلغ 2000 باوند عالمي، وقالت: «لا تقلق، أعرف أنك سترد المبلغ يومًا ما». مضيفةً: «تستطيع أن

تكمل المبلغ الذي تحتاج إليه من والدك أو أية طريقة أخرى، وتسافر».

صعقتُ من كرمها المفاجئ، وراحتها في الحديث. يبدو أنها من لصوص الواقعية الكبار كما قيل لي، بل قد تكون لها علاقة مباشرة بمقتل وسام بطريقة ما. ولكنني أريد السفر الآن، ولا وقت لديَّ لتلك الأفكار.

بت ألتقي مع غيث يوميًا في المقهى أو مطاعم الشوارع؛ نشرب البيرة، ونأكل لحومًا لا نعرف مصدرها، ونسمع أغنية «تغربينا» لياس خضر، ثم نلعب البلياردو حتى آخر الليل. لا فائدة، إذا وصلت إلى بلاد الإغريق سأتحوّل إلى شخص يعمل ويأكل، إنها مصيبة.

كان غيث من دفعتنا الدراسية في كلية الهندسة في جامعة «قلب الشمال» (أقصد أنا ورياض)، ولكنه يدرس في قسم مختلف، إذ درس نظم الاتصالات بينما درسنا الهندسة الإلكترونية، ولم أكن أعرفه أيام الجامعة. من ثم، بعد سنوات، عرفته صدفة من طريق فيسبوك، فتذكرتُ أني لمحته مرة في الجامعة، أو ربما تخيلت تلك اللمحة بعد أن تحدثنا وعرفتُ أنه كان يدرس في كليتنا نفسها.

كنا نجهز للسفر معًا. أنا أنتظر بقية المبلغ من والدي، بينما ينتظر غيث معجزة أكبر، عندما اتصلت بي ناقدة

مـن بـلاد الجنـوب، وراحـت تمـدح «أنيـابي الزرقـاء»، وقالـت إنـه بدايـة الطريـق، وخطـوة مهمـة تسـتحق أن تُكـرَّس. ثـم سـألتني «من أي بلد أنـت؟» شـرحت لهـا طـويلًا دون أن تفهـم. بعـد انتهـاء المكالمـة، علَّـق غيـث: «إن بلادنـا غيـر موجـودة علـى الخريطـة العالميـة أساسًـا، مـا لا تعرفـه أن هنـاك فراغًـا كبيـرًا بـين بـلاد الجنـوب وبـلاد الكـاجو. وعنـدما بـدأ الهـاربون يخرجـون منهـا فـرح بهـم أبنـاء بـلاد الإغريـق، بوصـفهم بشـرًا أتَـوا مـن المجهـول، بـلا اسـم ولا هويـة». وأكـد لـي أننـي أسـتطيع أن أنـزل إلـى الشـارع لأتأكـد بنفسـي. بعـدها، سـألني عـن الكتـاب، فأريتـه لـه، وراح يتصفحه وهو يضحك، ثم سأل:

- الآن عرفـت لمـاذا رفضـت شـرب البيـرة فـي البدايـة.

«بس لكينا الحيرة تفتر.. شايلة الحزن وعذابه..».

- لـو قرأتـه كـاملًا، ستجن. هـذا مـا نجـا فقـط. *«وشـفنا بعيـون السـفر كـل شـي غريـب عجيـب غريـب عجيب».*

- لكن، من هي رفيف التي تذكرها في كتابك كثيرًا؟

- لا يوجـد رفيـف ولا بطـيخ... فقـط كـي لا يظنـوا أننـا مخصيون

- آهـا.. تمويـه يعنـي *«والسـفر مـن طـال ليلـة.. القمـر عنـا رحـل.. والحنـين وكـل حجينـا.. بـالجفن نـام وزعل».*

- هكذا يريد الجمهور، يجب أن يحب الشاعر أحدًا. إنه أمر مقرف أحيانًا. *«والسفر من طال ليلة.. القمر عنا رحل.. والحنين وكل حجينا.. بالجفن نام وزعل».*

ثم وصل ياس خضر إلى المقطع المفضل، فصمتنا:

طيف الوداع يْتِمايَل

يِحذي وَيّ ليلْ العذاب

مرَّتْ سنيني حزينة

وضاعت أيامي سراب

بعد أيام من تلك المحادثة، كنت على الحدود السوريالية أعبر في اتجاه يخالف معظم الناس، بعد أن أعطيت غيث النقود. نعم، أعطيته نقود سارة، ليسافر. ففي تلك اللحظة، كنت أفكر في شيء مختلف تمامًا. لقد تعرض منزلي للقصف، وعليَّ إخراج الجهاز، وبعدها يمكن التفكير في السفر أو أي شيء آخر. *«والزمن ظل بخياله يدور بينا.. والسفر يقرانا صورة وما درينا».*

لي ذكريات كثيرة مع تلك الغرفة، وأخشى أن تكون قد سقطت الآن. منذ سنوات طويلة، كانت الغرفة ذات الباب الحديدي المكان الذي أقضي فيه أجمل الأوقات. كنتُ آخذ المفتاح المعلق على جدار غرفة الجلوس،

وأفتح باب الغرفة وأتركه مواربًا، بينما أعيد المفتاح إلى مكانه، كي لا ينتبه أحد.

مرة دخل أبي ليأخذ شيئًا من الغرفة في أثناء إحدى جلساتي السرية، فاختبأتُ تحت الطاولة، وظننت أن الأمر سيمر على خير. ولكنه بعد أن أخذ ما يريد، أغلق الباب بالمفتاح، فبقيت محجوزًا هناك حتى صباح اليوم التالي.

عندما نجلس مع أصدقاء لنتحدث عن حماقات الطفولة، لا أذكر تلك القصة أبدًا، بل أتحدث مثلًا عن أول وجبة حاولت تحضيرها لنفسي. يومها، وضعت البيض على النار لأسلقه، دون أن أحدد الوقت اللازم لينضج. وبعد مرور وقت ظننته طويلًا، أطفئت الغاز، وكسرت البيض ليملأ أرض المطبخ بالكواكب غير المتشكلة، ثم قضيت النهار بالتنظيف، وبت جائعًا. أو أتحدث عن حصولي أول مرة على مبلغ كبير في العيد، وكانت معضلة وجودية حقيقية، تتمثل في إيجاد السبل التي سأصرف المبلغ وفقها. لكن القصة التي أحب سردها تتعلق بهروبي من المدرسة يوم كنت في روضة الأطفال. كنت أخرج من باب المدرسة، ثم أنتظر ساعات على الطريق، حتى أرى الطلاب بدؤوا بالانصراف والعودة إلى البيت، فأعود مثلهم كأني قضيت النهار كله في المدرسة. مرة كنت أنتظر متكئًا على جدار منزل، لأرى عمتي جاءت

غاضبة، يبدو أنها بحثت عني طويلًا في المدرسة والشوارع، بعد أن أبلغتها قريبتنا أنني أقضي النهار كله متسكعًا على طريق المدرسة أو متكئًا على جدار منزلهم.

ما يدهشني أن تلك القصص لم تكن الأغرب أمام ما يرويه أصدقائي، فقد أخبرتني يسرى أنها كانت تصنع قوالب الكعك بالتراب، ثم تتذوقه وتستغرب أن طعمه تراب حقًا. وأخبرني أحمد أنه كان يخرج الطعام من الثلاجة ويضعه في الشمس ليسخنه، وينتظر ساعات دون نتيجة. أما القصة الفائزة، فكانت أن أحد الأصدقاء كان يسرق أشياء من منزله، ويضعها بين أغراض أخيه، ليتهمه بسرقتها. تلك القصة الأخيرة كانت مختلفة وتطرح أسئلة عميقة وجارحة، مع أنها طريفة عندما تسمعها في البداية.

دخل رياض كلية الهندسة بعد تفوقه في المدرسة الصناعية. نعم كان الأول على مدرسته، لكن هذا لم يغفر له أمام قسوة الرياضيات التي قضيتُ أول سنتين في الجامعة في تعليمها له.

كانت تلك الدروس في الحديقة مجانية، حتى أنه لم يسميها دروسًا. فقد كان يرى أنه أمر بسيط؛ أن نتحدث كل يوم مدة ربع ساعة في الرياضيات التي لا يفهمها. بينما، في المقابل، كنت أدفع له ثمن الدارات الإلكترونية التي يصنعها لي لأقدمها على أنها مشاريع من تصميمي، لقد كانت صفقةً خاسرة.

لا أعرف لماذا اختار أن يرسل لي – أنا بالذات – ذلك الجهاز، أنا الذي لم ألمسْ منه قطعة واحدة، واكتفيتُ بفحصه عن بعد. بل لأكون صادقًا لا أعرف ولا يمكن أن أعرف كيف يعمل.

انتقلتُ للسكن في بيت عمتي، وهي أرملة وحيدة، كلكم تعرفونها فهي التي زارتني منذ خمسة فصول في المدرسة وعرفتْ أمة لا إله إلا الله أني يتيم.

بيتي مهدَّم، ونقودي كلها قد صرفتها في بلاد الكاجو، أو في رحلة العودة منها، وليس معي سوى بعض الملابس، ومئة ليرة كاجوية استخدمتها لتركيب جهاز

راوتـر للإنترنـت فـي بيـت عمتـي، التـي كانـت لحسـن الحـظ تملــك لــوح طاقــة شمســية يتيمًــا أيضًــا، ووصــلتُ إلــى الصفر.

يومًــا مــا، وجــدت بــين ملابســي ليــرة كاجويــة معدنيــة، فتحســرتُ علــى الأيــام التــي كنــا نجــد فيهــا الباونــدات العالمية مرمية في كل مكان.

أول مـا فعلتـه فـي تلـك الأيـام هـو نقـل الجهـاز إلـى بيـت عمتــي، ثـم إقناعهـا بالـذهاب للعـيش فـي المزرعـة، فـذلك أفضـل لصـحتها النفسـية وأمنهـا. وفـي شـهر رمضـان كنـتُ أتعشــى كـل يـوم فــي بيـت عمــي، فقـد أصـبحتُ آكـل أي شــيء. وفــي فصــل التــدخين اســتدنتُ بعــض الأمــوال علــى أمـل أن أعـود إلــى الكتابـة وأتمكـن مـن تسـديد ثمـن تلـك السجائر التي كانت الصديق الوحيد.

لقد سـافر ربيـع فـي الأيـام التـي عـدت فيهـا، وتمنيـت لـو أننـا التقينــا علــى الحــدود، وســلَّمنا علــى بعضــنا ســلام المرايــا، مثلمــا يحــدث عنــدما تصــطدم ســيارتين ببعضــهما أخــف أنواع الاصطدام.

لأمنـع عمتـي مـن زيـارة بيتهـا، روَّجـتُ شـائعات عـن وجـود الجـن فـي البيـت، وأن أحـد هـؤلاء يحـاول دائمًـا سـحبي مـن قــدمي وأنــا نــائم، طبعًــا أنــا بوصــفي ديــب س.إليــوت لا أؤمـن بتلـك الأشـياء، وأسـتطيع تفسـير الأطيـاف التـي أراهـا

بـآلاف الطـرق قبـل أن يسـتطيع أحـدها أن يمـس أقـدامي، ولكن عمتي ستقتنع.

وجـدتُ قطًـا لطيفًـا يـأتي إلـى البيـت ويجلـس فـي الممـر وقـت الظهيـرة، حيـث يمـر تيـار الهـواء. أسـميتُه «سـيمبا»، وصـرتُ أجلـس معـه سـاعات طويلـة، وقـد يـأتي يـوم مـا وآكله إن استمر الوضع هكذا.

فتحـتُ الكرتونـة، وتأملـتُ الجهـاز طـويلًا. مـرت سـاعات وأنـا أحـاول أن أحـس بـه وأفهمـه، ولكـن ريـاض لـم يكـن فنانًـا، وقـد لا يـدل الشـكل (أو ترمـز الألـوان) علـى أي شيء.

فـي الواقـع، إنـه لـيس قبيحًـا، بـل إن اللـون الأحمـر القـاتم يسـكب عليـه سـحرًا خاصًـا، ولكـن زوايـاه حـادة زيـادة عـن اللـزوم، ولـولا ذلـك لأحببتـه. فـي النهايـة، قـررتُ أن أقـرأ دليل التشغيل.

لا تظنـوا أنـي أعلـم بوجـود دليـل التشـغيل منـذ فتـرة طويلـة. لا أبـدًا لقـد وجـدت ذلـك الـدليل منـذ أيـام فـي بريـدي الإلكترونـي، ويبـدو أنـه قـد وصـلني يـوم وصـول الجهـاز، لكـن شـركة غوغـل شـاءت تصـنيفه فـي خانـة «الرسـائل غير المهمة».

باختصـار، إنـه جهـاز يسـتطيع أن يرصـد عبـر أمـواج الـواي فـاي مـا يفعلـه النـاس فـي بيـوتهم، ومـا يقولونـه، ومـا

يحسونه أيضًا، استنادًا إلى تحليل لغة أجسادهم. كل هذا لم يلفت نظري، أعرف أن التكنولوجيا تطورت وتراقب مزرعتنا جيدًا ولا يهمني حتى إن صورتني وأنا أستمني، حتى قرأت الجملة التي ستغير كل شيء: «ويقدِّم تقريرًا مفصلًا حول ذلك».

الآن فهمت كل شيء، عرفت ذلك المغناطيس الهائل الذي جذبني وأجبرني على العودة. لم أتوقع هذا حرفيًا، لكن لدي ثقة هائلة برياض. في سياق آخر، ما زالت أموالي بأمان مع غيث، الذي وصل سالمًا إلى بلاد الجرمان، ويمكن أن يعيدها إليَّ أو إلى سارة مباشرةً بعد فترة.

أحتاج فقط إلى إجراء بعض التعديلات في شكل التقرير، وتزويد البرنامج ببعض الكلمات المفتاحية، من ثم أوجه الجهاز إلى منازل معينة وتنهمر القصائد من تلقاء نفسها. الآن، سأكون الكاتب الخطر.

هذا الجهاز العزيز.. صديقي.. يجب أن أسميه... حسنًا، سأسميه «المعتوه». مهلًا، سأبقى أنا الفنان الحقيقي (مع أن أشخاصًا مثل غيث لا يعجبهم هذا)، فأنا من سيختار البيوت المستهدفة، وأنا من سيحدد الكلمات المفتاحية، وأنا من سيجري تحسينات شبه يومية على شكل التقرير، وفي النهاية، أنا من يختار النصوص الجيدة من بين كميات هائلة من النصوص

التـي ينتجهـا. ومـن عجائـب اللغـة العربيـة أن كلمـة مختـار هي اسم فاعل واسم مفعول.

كنت على المنصة لأول مرة منذ سنين طويلة، ألقي قصيدة طويلة جدًا وأنا أرتجف. لم أكن أتوقع بأي شكل ردود أفعال الناس، ولكنهم فعلوا ما عليهم وصفَّقوا.

من فارس الأسوار

هبتْ نسمةٌ حَيْرى

وراء الباب

تركضُ نحو ميعاد الفصول

/

النور في هذا الطريق

جنازةٌ كبرى

وآلهةٌ تضيق

/

مالي بعيني

من مآل

إني وإن كثر الجحيم

فراغ بال

/

أستوطن الأنغام مثل الفجر

ثم أرد في ذا العمر

أغنية السؤال

لترتجف

ما لي لعيني من دمٍ

بل كل أيامي صحف

/

أستوطنُ النسيان

من كثرةِ ما جرَّحت

فيَّ الحقيقة

وأنثَنِي فيَّ الهدف

أنا مُرغمٌ حدَّ الوصول

وضائعٌ حدَّ الترف

عندما انتهيتُ جلستُ في الصف الأول أراقب شعراء آخرين يلقون ما لديهم دون أن أستمع أو أهتم، حتى اقتربت مني فتاة وطلبت مني أن أنتظر بعد انصراف الجميع في غرفة مديرة المركز.

تسللتُ بينما يقرأ آخر الشعراء قصيدة عمودية عظيمة، يصف فيها أحد الأشخاص بأنه ابن زانية، ويتعالى التصفيق. جلست على الكنبة التي تبدو مريحة أكثر من غيرها في ذلك المكان، لأنتظر. بدأت الأصوات تهدأ، والجميع يغادرون عندما دخلت تلك الفتاة نفسها، وجلست قربي. قبل أن تنطق بأية كلمة، قبَّلتي بخفّة على شفتي العليا.

صُعقتُ مما حدث، ثم قالت لي: «أنت حقيقي؟». فهمت منها أنها كانت تتابعني وتقرأ اسم «ديب س.إليوت» في المجلات وعلى فيسبوك، ثم سمعتْه في الإذاعة المحلية ضمن إعلان يتحدث عن هذه الأمسية.

في البداية، كانت تظنه شيئًا خياليًا أو اسمًا مستعارًا. لذا، عندما اكتشفتْ منذ أيام أن المركز الواقعي الذي يستضيف الأمسية هو نفسه المركز الذي تديره صديقتها، استغلتْ صداقتهما لتشارك في التنظيم.

ما أغباني، أنا الذي كنت أنوي سؤالها على سبيل خفة الظل إن كانوا يقبّلون جميع الضيوف.

بعد حديث استغرق نحو ساعة، قمتُ لأودِّعها. أمسكتُ خصرها بيدي اليمنى، وسحبتها نحوي، وقبَّلتها قبلات مستعجلة، وهي تقول لي: «يكفي اذهب»، كأننا نعرف بعضنا منذ أسبوع.

سـرتُ فـي الشـارع منتصـبًا، أداري انتصـابًا آخـر، بينمـا أقـول لنفسـي: «هـل هـي حقيقيـة؟». مـن الجيـد أنـي لـم أعتزل الكتابة.

عندما يتحدثون عن الحب والقبلة الأولى، أقول لهم إنني كنت صبيًا صغيرًا، جميلًا ويتيمًا. تقبّلني السيدات (وحتى بعض الذكور) على شفتيَّ كثيرًا، وهذا ما يشعرني بالقرف.

تعلّقت مثل غيري بأشخاص فيما بعد، وكان لهم دور فيما أكتبه، ومن ذلك «الكتاب السماوي». أقول تعلقت لأني صرتُ أرى العلاقات أعقد من موضوع حب وكره، لنتخيل الناس كواكب تسبح في مدارات، ما يؤدي إلى آلاف التجاذبات والتنابذات الحادثة في كل لحظة. يوجد كواكب ترشق غيرها بالحجارة، وأخرى ترسل المستكشفين. بعضها يبحث عن شيء محدد، وبعضها يسير على هدى صوته الداخلي دون أن يلتفت إلى شيء في الخارج. لكن، حتى لو تكلمت بهذه اللغة البسيطة، وأردت أن أصف أي تأثير عميق من شخص آخر له علاقة ليس في الضرورة بالحب وسؤاله الكبير بل بأي شعور إنساني طبيعي وبسيط، تبقى الشخصيات التي يمكن أن أعدها وأحددها قليلة جدًا في هذا الصدد.

سارة كانت الأم التي أنظر إليها بنوع من التقديس، وسقطت مثل غيرها. لكن، هل اختفى تأثيرها؟

عندما تحب حبًا جارفًا، تظن أنك قادر على تغيير العالم، وعندما لا يحصل ذلك؛ عندما لا يتغير العالم، تشك في حبك. أي أن النتيجة الصادمة والبديهية في الوقت نفسه لأي حب هي أنه يزيد من كرهنا لهذا العالم، ولكل الناس الذين يعيشون فيه، ولكنه يقربنا أكثر من فهم هوة بحر الظلمات التي لم نغادرها يومًا.

قد لا يفعل الجميع هذا، ويكرهون العالم. قد يصلون إلى ما وصلتُ إليه يومًا (نظريًا فقط) عندما تحدثت منذ قليل عن التعلق والتجاذبات والتنابذات، ويعيشون الحياة بروح رياضية، يقبلون الهزائم والانتصارات بوصفها جزءًا من طبيعة الحياة.

لكن ما معنى أن نقبل الأمور كما هي، ونكرر ما فعلته البشرية منذ آلاف السنين، دون أن تصل إلى شيء؟ فعلتُ شيئًا مختلفًا، ورحت أبحث عن معنى أعمق للحب.. للشغف.. للانتماء... لكل تلك الأمور التي لا تُباع ولا تُشترى، ولا تفنى، وتبقى في الأثير إلى الأبد.

منذ اكتشفتُ المعتوه، لم أعد أرى الأمور بذلك التعقيد، وبات الأمر بالنسبة إليّ بسيطًا: حيوانات تفتك ببعضها للحصول على الفتات. لم أعد أكتب، فهناك من يكتب. ولم أعد أحس بأي شيء. ربما كان نوعًا من الاكتئاب السعيد، أو آلية دفاعية يشغلها الدماغ في حالات الخطر ليحمي نفسه من الجنون.

لذا، قبلتي الحقيقية الأولى كانت مع ريما التي لا أعرفها في غرفة مديرة مركز غبي، حين استغلت ذهاب الجميع وأغلقتُ الأبواب، لنكمل تلك السهرة معًا.

ربما أحببتُ رفيف يومًا ما، ولكن ذلك الحب الجميل الذي يأتي مرة واحدة فقط أو لا يأتي، محاصر من جميع الجهات بطبيعتنا الحيوانية التافهة. لذا، سأعود إلى البداية لأتكلم عن كل شيء.

أهل أمي يعيشون في قرية «البر»، وقد عشت عندهم سنوات طويلة فيما مضى. كان جارهم مدرس لغة عربية، وقد زرته يومًا ما لأستعير كتابًا. كان رأسه غائصًا في المكتبة عندما أخرجت ابنته الصغرى رأسها من الحمام. ربما كانت تظن البيت خاليًا من الضيوف، وتريد أن تنادي من يعطيها منشفة أو شيئًا ما. لكن في تلك اللحظة فهمت في الحياة أمورًا مهمة، فصرت أستعير الكتب باستمرار.

كان جارنا متدينًا جدًا، يكثر من الاستشهاد بالأحاديث وقصص التاريخ، ويومًا ما راح يشتم «عمر الخيام»، ما حرضني على البحث عن الكتاب، ثم وجدت القصائد على موقع على الإنترنت، ونسختها بيدي في دفتر خاص. في الحقيقة، كان جارنا المرشد الأول لقراءاتي.

طلبت من جارنا أن يعطيني دروس خصوصية لامتحان الثانوية العامة، فأخبرني أنه مدير مدرسة متقاعد ولم يعمل في التدريس منذ زمن، فتذرعت بأن أبي لا يرسل لي نقودًا كافية، وأنني قد أرسب إن لم أجد من يدرسني. كانت تقدم لنا الشاي، وهي ترتدي جينزًا ضيقًا وأظافر قدميها مطلية باللون الأحمر. تبدو ممتلئة قليلًا، بل متفجرة، وأكثر ما أحببته فيها أصابع رجليها. انتقل مكان دراستي إلى السطح علَّها تصعد وتراني، وكان هذا نادرًا ما يحدث، فأجلس ساعات لأفكر فيها.

ذهبتُ إلى الجامعة، ولم أعد لزيارة أهل أمي، بل صرت أقضي الإجازات في قرية الأسوار عند أبي، لأحصل على النقود مباشرةً، ثم إن أهل البر متخلفون وقد يزوجونها قبل أن أنهي دراستي.

فيما بعد، أخبرتُ رياض أن البنات في قرية أمي جميلات ومتخلفات، وفي قرية أبي قبيحات وثرثارات، وفي كليتنا لا يوجد بنات تقريبًا، فمن المعروف أن كلية الهندسة في قلب الشمال تسمى كلية «الزب الحزين»، فنصحني يومها بزيارة كلية الآداب.

كان لي ابن عم يدرس هناك، رحت أتصل به في العطلات، وأخبره عن ضرورة أن نلتقي دومًا ونخرج في مشاوير مشتركة، فنحن أبناء عم قبل كل شيء. حدث هذا، ورحنا نلتقي كثيرًا في القرية أو الجامعة، وصرت

أحضـــر محاضـــرات تتحـــدث عـــن الأدب المهجـــري، وأعجبنـــي الأمـــر حتـــى أنـــي دخلـــت يومًـــا إلـــى كليـــة الحقـــوق لأحضـــر محاضـــرة عـــن قـــانون العقوبـــات ووجـــدتها القاعـــة مكتظـــة مثـــل كليـــة الآداب وزيـــادة، حتـــى أن أحـــد الطـــلاب فـــي آخـــر المـــدرج يمكـــن أن يشـــغل أغنيـــة ويســـتمع لهـــا دون أن يصل الصوت إلى مدرس المادة.

لـم أسـتفد كثيـرًا مـن زيـارتي إلـى ابـن العـم، ولكنـه يومًـا مـا أراد إبهـاري فـأراني مكتبتـه التـي تعـب فـي جمعهـا: مئـات المقـاطع الصـغيرة مـن أفـلام البورنـو، عنـدها قلـت لـه إنـي سأدرس مكتبته بالكامل.

بعـد أسـابيع مـن محادثتنـا الأولـى، قلـت لريـاض إن حـالتي لـم تتحسـن، فسـألني: كـم مـرة تسـتمني فـي اليـوم؟ لـم أفهـم سـؤاله، فشـرح لـي ماهيـة الاسـتمناء. عنـدها بـدأت أسـتمتع بـالأفلام بـل قمـت بنسـخ مختـارات منهـا علـى قـرص مضـغوط CD، وأعطيـت نسـخة لريـاض، ونسـخة لحسـام كـي لا يمـر بمـا مـررت بـه. بعـد سـنوات سأكتشـف أن النسـخة التـي أعطيتهـا لحسـام جابـت نصـف بيـوت القريـة، وأنها أول عمل أنشره يجد صدى جيدًا.

فـي بـلاد الكـاجو يمكنـك أن تخـرج أسـواريًا مـن قبعتـك كلمـا أردت ذلـك، لـذا لـم يكـن غريبًـا أن أصـادف ابـن العـم هنـاك أيضًـا، وأطلـب منـه أن يسـاعدني علـى فقـدان عـذريتي. أخـذني إلـى بنايـة فـي طـرف العاصـمة، ولكـن عنـدما

وصلنا، وبعد أن نظرتُ إلى البناية ولم يعجبني منظرها لأني ظننت أنها تنقص شقة، قال لي: «لن تصدق من ينتظرك هناك». سألته: «من؟»، فأجاب: «سهام بنت أبو علي»، «ومن هي سهام؟ ومن هو أبو علي؟»، فقال: «جيراننا في القرية». لم أتركْ كلمة في قاموس الشتائم لم أقلها، ومضيتُ.

في تلك الأيام، كنتُ أظن أني قد أقطعه قبل أن أضعه في بنت من الأسوار، ولكن ها هي ريما أسوارية جديدة تدخل على الخط.

أقضي النهار والليل في الاستمناء ومشاهدة الأفلام، وكل عدة أيام أشغل الجهاز مدة خمس دقائق لأكتب قصيدة أو مقالًا ساخرًا. كانت الأمور تسير جيدًا. ألتقي بريما كل فترة في مكان ما. كانت تلك اللقاءات تتم بصعوبة كبيرة، ولذا كانت لها متعة خاصة، لكنها كانت ترفض زيارتي في المنزل دون أن أعرف السبب، ربما أستطيع أن أريح نفسي الآن وأفسر الأمر بقصة عمتي والجن. ثم بدأت أفكر جديًا في الزواج والاستقرار وبيع القضية التي لم أعد أذكر ماذا كانت، ما يعني تغيير مكان سكني أيضًا لأنه لا يعجبها، لذا قررت البحث عن وظيفة جديدة.

لأتمكن من استئجار بيت جديد، بدأت العمل في شركة تبني بيوتًا تشبه الألعاب ليسكن فيها المهجرون قسريًا. كانت هنالك أعداد كبيرة من المهجرين بسبب الحرب، وقد قدم معظمهم من منطقة النهر الغاضب، ليستقروا على حدود بلاد الكاجو.

كنا ندخل كل يوم إلى الشركة، فيبدأ المدير الاجتماع، ويسهب كثيرًا في الشرح، ثم نخرج وأنا أقول لزميلي الجديد في العمل، وهو بالمناسبة ينتمي إلى قرية صغيرة قرب الحدود: «لو كانت الأمور طبيعية لما رضيتُ أن أسلم على هذه الأشكال مجرد سلام»، فيقول لي أن أهدأ

قليلًا، وأن المدير من قرية قريبة من قريته، ثم يحذرني من طول لساني، وأن هنالك كثيرين يحبون نقل الكلام.

كانت تلك البيوت تشبه الألعاب حقًا، وتتكون من قطع معدنية يلحمها الحدادون ببعضها، ثم يثبتون فوقها ألواحًا خشبية. وكان عملي يقتصر على الوقوف في الشمس طوال النهار ومراقبة سير العمل، ويجب أن أتأكد من تسليم أربعين بيتًا خلال أربعين يومًا (مدة تنفيذ المشروع)، أي بمعدل بيت واحد يوميًا.

كنت لا أجرؤ على لمس تلك البيوت قط، وأخشى أن تسقط إن هبت نسمة، وفي اليوم الأخير وجهت رجاءً حارًا إلى جميع العمال كي يخرجوا بحذر دون أن يتنفسوا، خوفًا من أن تبدأ بالتساقط. يقال إن صلاحيتها عشرة أعوام ولكنهم ربما أخطأوا بين اليوم والعام.

في اليوم الأخير، خرج المدير من مكتبه وتوجه نحو المكتب الذي نوقع فيه أوراق براءة الذمة، فربما كان لديه حدس أنني لن أعود لتوديعه، ثم ناداني، وقال:

«بصراحة لم أتوقع أن تصمد تحت الشمس أربعين يومًا. لقد وصلني كل ما كنت تقوله عني، لكن لا عليك. أتمنى أن تصفو القلوب، فقد نعمل في مشاريع جديدة، وقد لا نرى بعضنا أبدًا بعد الآن». ثم أضاف: «للأسف في حال كان هناك مشروع جديد سيكون لاستقبال أهل

الأسوار». غرقتُ في الضحك، ماذا أقول له، الأسوار شيء وكل البلاد شيء آخر، كل متر من الأسوار يساوي قرية كاملة من تلك القرى اللعينة، ودعته ومضيت. أظن أنكم تفهمون هذا... لم تكن علاقتي بأبي يومًا جيدة، ولكني أنزعج عندما يسب أحدهم أبي، مع أنه لا يقصده ولا يعرفه. الأمر نفسه ينطبق على الأسوار.

بعد أيام، ذهبتُ لأقبض راتبي. وطبعًا أوصلني سائق خاص فقد وظَّفتُ سائقًا منذ اليوم الأول لبدء العمل، وهو أمر لم يعجب أحدًا في الشركة. وعندما استلمت الراتب، دفعتُ حساب السائق المتراكم، ما يساوي ثلثي الراتب تقريبًا.

أقضي النهار والليل في الاستمناء ومشاهدة الأفلام، وكل عدة أيام أشغل الجهاز مدة خمس دقائق لأكتب قصيدة أو مقالًا ساخرًا، حتى تعطل الجهاز!

كان الجهاز يعمل جيدًا، ولقد أنجز نصف المقال الذي طلبته منه ويتكون من صفحتين، خرجت الصفحة الأولى تحمل عنوانًا لطيفًا «نحبكم.. أيها الشعراء»، وتتحدث عن مساعد في المخابرات يشتكي من أنه مكلف بمراقبة إنتاج جميع الشعراء السرياليين، وهي مهمة متعبة حقًا. أكملت المقال يدويًا بكتابة خاتمة سريعة موجزة:

أيها الشعراء.. أنتم كارثة! كما قلتُ لكم لا أحد يقرأ أعمالكم، حتى النقاد يستطيعون تمييز أسلوب الواحد منكم فور قراءة الكلمات الثلاث الأولى، حتى محبي الشعر سيتمسكون بمن أحبوهم من شعراء في أيام المراهقة وهم الأردأ بكل تأكيد، فما بالكم بالصحفيين الذي يكتفون بأخذ أغلفة كتبكم ونسخ صفحة من الكتاب وصفحة أخرى من الهراء النظري الجاهز في رؤوسهم، ويقبضون. يبدو الأمر لطيفًا، والدنيا تسير جيدًا مع الجميع، ولا أحد يشتكي، وكل تلك الأصوات التي تشتكي من كثرة الشعر منيكة لا أكثر. ففي نهاية الأمر، إنها صناعة كبيرة تقوم على اللا شيء، فأنتم يا أحبائي تبيعون الهواء. لكن نحن فقط يحق لنا أن نشتكي، نحن فقط مجبرون على قراءة كل ما تكتبونه، كل أحلامكم وأوجاعكم وترهاتكم وتقييمها، ومعرفة: هل تشكل خطرًا على الدولة، أم لا؟ مع هذا، لا أحد يحسُّ بنا، أو يسعى لتخفيف معاناتنا. رجاءً لا تكتبوا كل يوم. يكفي قصيدة واحدة كل شهر، أو في المناسبات الرسمية. ربما حينها سنشتاق إليكم، ونحبكم.

أعود إلى بداية المقال لأشوه قليلًا من عمل المعتوه الرائع، إذ التقط اللعين روح المساعد جميل كأنه ابن سلك من يوم يومه، بينما كانت عباراتي التي قرأتموها حذلقة تسبب الضجر.

- هذا المقال مختلف تمامًا عن كل ما كتبته.

خفتُ قليلًا، ثم أردف:

- إنـــه يحتــوي علـــى أســـلوب. اســـمح لـــي أن أدعــوك كاتبًا.

لم أنبس بحرف، ثم أرسلتُ له بعض الملصقات.

فـــي ظـــروف أخـــرى، يمكـــن لانقطـــاع مصـــدر دخلـــي أن يــدخلني فــي حالــة اكتئــاب لا مثيــل لهــا. لا ســيما عنــدما أرى شــحاذًا فــي الشــارع وأتــذكر أنــي لا أملــك ثمــن علبــة ســجائر. لكــن فــي تلــك الأيــام كانــت ريمــا معــي تــدعمني معنويًــا وأحــس أنــي منتصــر فــي هــذا العــالم بــين معتــوهين كثر.

الانهيــار يلــوح فــي الأفــق، ولــولا وجــود ريمــا لاستســلمتُ مباشـرة. لكـن، لأنـي أريـد أن أبقـى قويًـا أمامهـا فعلـتُ مـا لا يمكــن أن أقبــل بــه لــو كنــت بــوعيي؛ عــدتُ إلــى الكتابــة، فبعــد تجربتــي الأخيــرة، اكتشــفت أنهــا العمــل الوحيــد الــذي يروق لي.

لـــم يكـــن الأمـــر مأســـاويًا أبـــدًا، بـــل عـــاد بنتـــائج لـــم أكـــن أتوقعهــا، معنويًــا علــى الأقــل. مــا فعلتــه يومهــا أننــي بــت أعــود إلــى تلــك النصــوص التــي كتبهــا المعتــوه وتجاهلتهــا طويلًا لأختار منها من جديد.

كمـا قلـت لكـم ينـتج المعتـوه كميـات كبيـرة مـن الهـراء، وعـادةً أختــار أفضــل الموجــود. لكــن هــذه المــرة اختــرتُ أي شــيء

يصلح لأي شيء، وكانت النتائج أفضل من السابق، لأني رحت أبيع بالجملة.

لا يوجد ارتباط عاطفي بيني وبين تلك الأكوام المرمية، وبيعها لا يعد خيانة لذاتي، ولا يعد خيانة للمعتوه أيضًا، بل إني أساعده بنحو ما على الاستمرار.

بقيتْ بضع أوراق فقط، بعد ثلاثة أشهر ونصف من ربيعي الجديد. تلك المرحلة التي سيسميها المؤرخون لو كنتُ أحد أبناء بيكاسو أو شخصية مشهورة: «مرحلة البيع بالجملة».

- هذا المقال مختلف تمامًا عن كل ما كتبته.

خفتُ قليلًا، ثم أردف:

- إنه يحتوي على أسلوب. اسمح لي أن أدعوك كاتبًا.

لم أنبس بحرف، ثم أرسلتُ له بعض الملصقات. كنتُ أتحدث مع الأصلع، محرر في موقع «تجمع البغال السعداء». نعم، تكرر هذا الحوار حرفيًا، ولا تنتظروا من الأصلع أن يتذكر ذلك.

كان شعار الأصلع: «عندما تصل لا تكن نسخة ممن صعبوها عليك». لا أعرف إلى أين وصل هذا المعتوه الآخر، صحيح أنه كان يدير موقع «تجمع البغال

السعداء» يوم إجراء تلك المحادثة، لكنه طُرِد بعد أيام من هذا المنصب بعد حصول الموقع على دعم جيد.

يبدو أنني أصبحت أملك أسلوبًا عندما انتهت كل المواضيع التي يمكن أن أكتبها، وكل البشر الذين أعرفهم... ما الفائدة إذن؟ ربما لو استمر الأمر شهرًا آخر لوجدتم مقالات تتحدث عن جماليات الثرثرة في مقالاتي أو ابتكاري فنًا ساخرًا جديدًا.

لكن للأسف تقترب المرحلة من نهايتها، وينبغي لي التفكير في شيء آخر منذ الآن. لكن طمعي لم يدعني أتنازل حتى عن تلك الأوراق القليلة الباقية.

أمسكتُ تلك الأوراق لأرى ما الذي يمكن بيعه منها، رحت أقرأ السطور وأتجاهلها، حتى صعقت عندما قرأت كلمتي «نجم وسارة». أنا لست خائنًا، لم أستهدف منزليهما أبدًا، ولا أعرف حتى عنوانيهما. فكيف وصلا إلى بياناتي!

إنه وسيم الطالب الذي كان يسألني عن سبب محبتي لشطائر الزبدة والسكر في المدرسة. لقد كان صبيًا لطيفًا. ربما تذكرته يومًا ما وأنا أعمل على المعتوه، فاستهدفته ثم نسيت ذلك في غمرة انشغالاتي، المهم لنرى ما يقوله المعتوه عن نجم وسارة.

باختصـــار، نجـم يملــك شـركة لصــيانة الإلكترونـــات وبيــع الأجهـــزة، بعـــد أن تـــرك دراســـته بســـبب الحـــرب. ســـارة متزوجــة منــذ ســنوات، وســعيدة مـــع أطفالهـــا، وتعمـــل فـــي دعم المشاريع التنموية...

اللعنــة عليــك يــا ربيــع. كــل تلــك المعلومـات التـــي جمعتُهـــا عنهمـا خاطئـة، كـل هـذا بسـبب سـجائر الزفـت. لا بـد أنـــي خلطــت بــين أســرة ســارة وأســرة أخــرى، وبــين عمــل نجــم وعمل شخص آخر.

إنه أمر بسيط، يحدث مع أفضل الشعراء.

الفصل الثالث: البعد الخامس

-1-

لو كان للإنسان أية سيطرة على حياته لما خصَّصت صفحة أو صفحتين (في هذا الوقت بالذات) للحديث عن ريما، ولكننا لا نختار ما نريد. لو كانت جيناتي مختلفة، هل كنت سأحب الشعر مثلًا؟ إذن، هل ما أنا عليه مهم إلى هذا الحد؟

أكثر ما يزعجني أن ريما أعادتني شخصًا طبيعيًا تمامًا، ثم رفضتني لأني غير طبيعي، وهذا ما لا يمكن تفسيره أبدًا. إذن، لا أحد طبيعي، التصرف بنحو طبيعي، أو تمني ذلك مثالية حمقاء أيضًا، واتباع نماذج أخلاقية متعالية أمر لا معنى له أيضًا، ولا مكان له على الأرض.

هل أنزعج من ريما، أم أنزعج من طموحاتي التي اضمحلت بسببها؟ لكن ما الذي كان يمكن أن أفعله، أنا محاصر. ربما لم أحبها، لكن كذبها جميل، وكانت تكفيني لأحصل على السعادة.

ربما تركتني لأن المدينة ستسقط قريبًا، وتريد أن تهرب إلى مكان آمن قبل غيرها. أما أنا لا أملك سوى هذه البيوت التي تتساقط، وهي تريد بيتًا حقيقيًا، فالحياة هنا باتت مجازًا، لا سيما أنها عاشتها مع شاعر.

عملـــي متوقـــف، وكلماتهـــا بـــأني عـــديم المســـؤولية كنـــت سـأعتبرها مـديحًا فـي ظـروف أخـرى، لـو لـم تـؤدِ إلـى الانفصال.

يقـال إن الشـاعر الكبيـر يقـول مـا يحسـه فقـط. هـل أقـول لهـا: «أنـت ثالـث شـخص لـم أشـعر بـالقرف نحـوه بعـد سـارة ورفيـف»؟ وهـل علـيَّ أن أحكـي قصـتين لا تمكـن روايتهمـا لـتفهم الأمـر، أم أخبرهـا أنهـا الصـديق الرابـع فـي حيـاتي بعـد التـدخين وسـيمبا والمعتـوه. إذن سـأكذب، سـأكذب كـأي شـاعر صـغير، وأقـول لهـا: «أنـت رقـم واحـد». هـذه الجملـة التـي أضـحكتها يومًـا، ستصـبح فـي النهايـة شـماعة لتبـرر انفصالنا.

خسـرتُ فـي الحـب، إذن أتـى وقـت الكتابـة. أقـول لنفسـي: مـا يحـدث مـرتين، يحـدث مـرة ثالثـة، وأبـدأ. أرأيـتم هـا أنـا أقتـبس مـن بـاولو كويلـو الروائـي الـذي لا أحبـه، وأعمـل مثلما يقول. حقًا، نحن لا نختار ما نريد.

بالمناســـبة، منـــذ بدايـــة الـــنص وأنـــتم تقـــرؤون ديـــب س.إليـوت، يـا تـرى: مـن أيـن جـاء هـذا الاسـم؟ لـم أقـرأ لإليـوت أبـدًا، ولكـن لـو سـميتُ نفسـي علـى اسـم عـزرا باونـد أو بـول إيلـوار أو حتـى بـودلير، سـتجد مـن يكـرههم. أمـا ت س.إليـوت فهـو شـاعر حـداثي أنيـق ولطيـف، وقـد أدى المطلوب منه حتى الآن.

أمامي غيث الذي يدين لي بمبلغ كبير. أستطيع أن استرد النقود وأمضي إلى مكان أبعد من مكان ريما. يمكن أن أعود إلى المزرعة لأعيش مع أبي ريثما يقترب موعد سقوط المدينة، ونرى ما يحدث، وهو احتمال مرفوض. ربما أحاول إصلاح المعتوه إن كان يمكن إصلاح شيء في هذا العالم.

مجرد التفكير بهذه الطريقة يزعجني. منذ متى وأنا أحسب تلك الحسابات؟ هل كانت الصدمة كبيرة لتغيِّرني إلى هذه الدرجة؟ تمنيتُ أن أجد ربيع أو وسام لأسألهما: لماذا يحصل هذا مع قرية الأسوار فقط؟ لماذا كل هذا الحقد؟

حسنًا، سأتواصل مع غيث أولًا. من ثم، سأجرب كل الاحتمالات الممكنة لإصلاح الأمور. أرسلتُ له رسالة، وقد يستغرق الرد أيامًا. إنه الآن دكتور في هندسة الاتصالات، وربما نسيني. لنطرح السؤال بطريقة أخرى: من الذي يتذكرني الآن لأبدأ به، ذكرياتي أنا لم تعد تنفع؟

بعد ذهاب ريما، فكرت أيضًا في أمسية شعرية جديدة لأحصل على غيرها، ثم تخليت عن الفكرة لأني غير متوازن حاليًا، كما أن الظروف غير مناسبة.

معظم ملابس الأطفال جميلة ومرتبة، ثم تبدأ المشكلات بالظهور كلما توغلتَ في فترة المراهقة. في البداية، كانت زوجة أبي تساعدني في اختيار الملابس، حتى قررتُ أني نضجت، وينبغي لي الاعتماد على نفسي. مرات كثيرة، كنت أشتري شيئًا، فأرتديه مرة واحدة، ثم أرميه في الخزانة، ولا أعود إليه، وأكتشف أنه لا يناسبني. من أشياء كثيرة أشتريها، كنت أرتدي كنزة أو اثنتين دائمًا؛ تلك الملابس التي توفر الراحة، وتبدو متناسقة مع الذوق العام.

في بداية الجامعة، قررت أن أضحي بموضوع الراحة، وألبس البنطلونات الضيقة، وكان هذا خيارًا سيئًا أيضًا، لأن الوقوف نهارًا كاملًا في مخابر الكلية ببنطلون يحبس الدم ليس الخيار الأفضل. عدت بعدها إلى التنسيق بين الراحة والتناسق مع الذوق العام، ما اضطرني أحيانًا لتفضيل اللون الأسود، وأحيانًا أخرى إلى ارتداء الأصفر أو الوردي، فقط كي لا أبدو تقليديًا.

بعد قيام الحركة، أصبح موضوع الملابس ثانويًا جدًا، ولا يهم أيًا كان ما أرتديه. حتى أن ربيع أعجب بذلك كثيرًا، بينما امتعض آخرون. لكن عندما التقيتُ بريما، كنت قد امتلكتُ أخيرًا بعض الخبرة في هذا المجال، وباتت ملابسي جميلة، يساعدني على اختيارها كون نقود

المعتوه تأتي بسهولة، فلا أتأخر في شراء أول ما ينزل إلى السوق.

لكن تلك العملية التي استغرقت سنوات لأفهم ما الملابس التي أريد ارتداءها، لا يمكن أن تتوفر في مجال اختيار الشريكة التي سترافقك، فالشاب مجبر على مرافقة تلك التي تظهر في طريقه أيًا كانت، ولا يملك خيارات كثيرة. لذا يقولون الحب أعمى. ولم أفهم أن ريما لا تناسبني إلا بعد فوات الأوان.

عندما دخلت ريما إلى المنزل أول مرة، رأت طيفًا أسود شفافًا يتجوَّل في المكان. لم تجد شيئًا يجلس عليه، فقد نسيتُ إحضار كراسي، والكثير من أثاث المنزل أحرقته لأستخدمه وقودًا للطبخ أو للتدفئة، ولا يوجد في المكان سوى سرير وخزانة، إضافةً إلى الغرفة المغلقة التي تضم المعتوه.

عندما التقينا في مكان آخر، قالت إنها لن تزور ذلك المنزل أبدًا.

أسعدتم أوقاتًا

أنا الأصلع (محرر هذا الكتاب)

لا تخافوا فلست معتوهًا إلى الدرجة التي تحدث بها ديب عني، وأظن أنه كان يتخيل محادثتنا تتكرر في رأسه باستمرار، كما يكرر دومًا الجمل الشعرية وحتى العبارات اليومية التي يقولها، فقد كان يظن نفسه شاعرًا بدوام كامل.

بعد تركي «تجمع البغال السعداء»، عملتُ مع «شلة البقر»، والآن أعمل مع «أولاد الكلب» شخصيًا. الحياة تحتاج إلى بعض التنازلات، ونحن في حديقة حيوانات، ولسنا بشرًا في النهاية (الإنسانية مزحة وصدقناها). ولكني الآن بلا عمل، لذا قبلت بتحرير هذه الرواية التي لا ترقى لما أطمح إليه حاليًا. أما ديب فكان يُفضِّل أن يعمل بمفرده مثل صديقه: جبران خليل جبران.

لا تهمني معرفة: هل المعتوه موجود حقًا، أم لا؟ فأي شخص يستطيع أن يتخلى عن صوته ويصبح معتوهًا آخر، كما وصفني ديب.

نجم وسارة؛ حكاية جيلنا. جيلنا الذي لا ينتمي إلى هذا المجتمع بنحو ما، أما هم على – اختلاف اتجاهاتهم – جزء أساسي أصيل منه؛ كلهم أبناء بيكاسو، الذي سيطر على البلاد أربعين عامًا، وربما نحتاج إلى أربعين عامًا أخرى ليحدث التغيير. يبدو في ظاهر الأمر أن شيئًا ما يختلف، ولكنها العقليات نفسها التي اعتادت البيروقراطية والغباء والشللية.

لماذا فعل جيل نجم وسارة ما فعله؟ هل كان الأمر فقط تقليدًا لما حدث في دول أخرى؟ إنها أسئلة من الصعب

الإجابة عنها، ولكن الانتقام سيلاحق أبناء هذا الجيل إلى الأبد.

لسنا هنا بصدد إضافة مظلومية جديدة إلى قائمة طويلة من المظلوميات في بلاد لا يمكن وصفها سوى بأنها خزَّان عصاب هائل، ولكن الفكرة أن نجم وسارة ضحايا وهُم مطالبون بالتغيير في الوقت نفسه، أما الأجيال الأخرى – وإن كانت ضحايا – صلاحيتها منتهية وتتحلل الآن كالجثث الفاسدة.

ما أريد قوله – وهو بالمناسبة هدف مشروعي المغدور «تجمع البغال السعداء» – إن الأفكار بلا قيمة، فهنالك الكثير منها. أستطيع أن أعطيك مئتي فكرة كما يفعل أحد هؤلاء السرياليين المقيمين في دول بعيدة، وجميعهم يدعون الواقعية مع أنهم أبناء بيكاسو، لكنني أعرف أن أفكارهم لن تغير شيئًا، بينما نختلف نحن عنهم بأننا نعيش التغيير، ولو بنحو مأساوي.

لذا تستطيع أن تكتب ما تريد، أية فكرة سخيفة، مثل نظرية أبناء بيكاسو السخيفة التي كتبتها منذ قليل، حتى إن قالوا لك:

- تلك أفكار رعاع.

أجبهم:

- لا يوجد سوى أفكار الرعاع. إنها التي تحكم العالم من أعظم رئيس في أكبر دولة حتى أصغر مسؤول في أي مكان. أما أحلام الفلاسفة فلا مكان لها على أرض الواقع. لقد أخذ الرعاع كل شيء، وأول ضحاياهم الحقيقة.

لذا لا تهمني أية معلومة أوردها ديب في هذا الكتاب.

هل أحاول أن أقول إن فكرة ديب عن أبناء بيكاسو هي فكرتي وأنه قد تعلمها مني وأضاف عليها؟ هذا لا يهم أبدًا. ربما في يوم ما أردت أن أترك ورائي فكرة ما لكي لا يبدو لي - أنا على الأقل - أن هذا العمر مر هكذا بلا معنى، ولكن الآن حتى هذا الأمر لم يعد يعنيني.

هل تظنون أننا لا نعرف من قتل وسام؟ طبعًا نعرف. ولكن عندما يصنع أحدهم لك الشاي ويضيف بعض السكر الزائد، أو يجعله خفيفًا، أو يغليه حتى يفسده... عندما يحدث ذلك، ما الفائدة من معاقبته طالما أنك ستشرب شايًا فاسدًا؟ فليذهب العالم إلى الجحيم طالما أن كأس شايي ما يزال سالمًا، يقول صرصار دوستويفسكي. وأنا مثل ديب أرى الشاي فاسدًا، ولكني لا أشتكي مثله، فتلك طبيعة الأمور، وأحاول أن أصنع شيئًا أنظف، ليختفي ذلك المشروب النجس، ولو من أمام عيني.

تكفي جزيمة قابين لنفقد الأمل بالبشرية. حتى إن كنتَ ملحدًا، ستحدث جريمة ما تفقدك الأمل. أما إذا كنت شاعرًا ستفقد الأمل لأسباب أتفه بكثير، لأن أمك لا تحبك مثلًا، أو أن تتركك حبيبتك، أو أن ترى طفلًا يتسول في الشارع. ستفقد الأمل بالأحداث اليومية البسيطة فقط، ولكن تستطيع دومًا أن تراهن على الزمن، وتقامر بكل شيء.

هذه القصة بلا بداية ولا نهاية، وجميعنا متشابهون، ولا أحد يمكنه أن يعرف نهاية الرواية، وأشكر غيث على إتاحة الفرصة لي لتحريرها حتى هذه النقطة. لذا، اطمئنوا، هذا العمل لن ينتهي، وربما غيث وحده يعرف النهاية الآن.

طبعًا كل شيء حتى الآن يخص المؤلف (ديب س.إليوت). لهذا أردتُ هذا الهامش الأخير. أردتُ توجيه الشكر لديب، الذي لم يكن أسوأ تلاميذي.

لن أحدثكم عن ديب، فشهادتي فيه مجروحة. إنه أحد الأشخاص الذين كنت أعمل من أجلهم؛ من أجل أن يستمروا ويتحرروا ويعيشوا، ولا أريد مناقشة ما فعله، ولا أسمح لكم بالتدخل بما أفعله، فلستُ أنا من يحدد معنى الواقعية، ولستم أنتم أيضًا.

لا أعرف متى حدث ذلك، لكن ديب فقد صوته، وعندما أحب ريما لم يستطع أن يكتب عنها سطرًا واحدًا، ولم تفهم هي حرفًا واحدًا مما يقوله المعتوه. لماذا إذن لم يستهدفها ويعرف قصتها؟ هل يحتاج هذا إلى شرح؟ لأنه أحبها.

ليس لدي اعتراض على جميع المشاريع والتجارب التي قام بها ديب وتحولاته العظيمة أو التافهة التي لا يمكن أبدًا أن تكون عميقة أمام صوته الداخلي الذي كان لا يمتلك سواه، ولا يستطيع التعبير عنه.

لا يوجد مجتمع يناسب الشاعر، لا النظام الرأسمالي، ولا الاشتراكي، ولا الأرستقراطي، ولا الرعاعي، فكيف بديب الذي عاش في نظام شمولي، وعرف مبكرًا أنه لن يستطيع أن يغير شيئًا. لذا، ظن مثل جميع أبناء جيله أن الحركة الجديدة ستنقذه. ولكنه وجد نفسه ممنوعًا من العمل والعيش، وحتى من الأمان والاحترام. كأن النظام السريالي والواقعيون جميعهم يتآمرون معًا على تفريغ هذه البلاد من أبنائها وطاقاتها رغم تصريحاتهما التي تخالف ذلك.

فـي أوقـات الحـروب تظهـر شخصـياتنا الحقيقيـة، وجوهنـا ورغباتنـا المدفونـة جميعهـا، وفـي الوقـت نفسـه نفقـد القـدرة علـى التعبيـر عنهـا، كمـن يغنـي وسـط الضـجيج. هـل أجـرؤ علـى القـول: إن مـا جـذب ديـب هـو صـوت الحـرب الجديـدة ولـيس جهـازًا إلكترونيًـا حقيقيًـا؟ ففـي النهايـة، ديـب أكثـر مـن يعـرف أن الأمـر كلـه لـيس أكثـر مـن أجهـزة تلـتقط إشـارات، حتـى الشـاعر جهـاز مثـل غيـره، وكـل تجربـة ليست أكثر من محاولة لالتقاط إشارات بتقنية أكثر دقة.

أراد ديـب أن يـذهب إلـى بـلاد الإغريـق ليـدخن ويكتـب المزيـد مـن تلـك الأشـياء، قبـل أن يجـد فرصـة أكبـر ليبيـع الأوهـام هنـا، إنهـا التجـارة الوحيـدة الرائجـة فـي هـذه الأيـام. لكنـي مـع هـذا أحببـت ديـب، ووجـدت فيـه بارقـة أمـل لإضـافة لمسـات خاصـة إلـى مشـروعي الأدبـي القـائم علـى الأسلوب فقط.

عمومًـا، إن المعـاني التـي نطلقهـا علـى الأشـياء تافهـة وزائلـة، وربمـا مـا تفعلـه الحـروب أنهـا تظهـر لنـا هـذا بوضـوح أكثـر، والسـبب ببسـاطة لكثـرة مـا نـرى مـن أشـياء، أي ترينـا جحيم المعـاني الـذي نعـيش فيـه، إذ تتـوحش رغبـة الشـعر فـي التحـرر مـن قيـود المعـاني وقيـود الواقـع وقيـود الزمن.

الكذبـة الجميلـة الخاصـة، الصـوت الخـاص، هـي مـا أردت أن أحـافظ عليـه. أن أبحـث عـن النبـوءة داخـل كـل شـخص، عـن السـبب الـذي جـاء بـه إلـى هـذه الأرض، بعيـدًا عـن الوعـود والكلمـات الكبيـرة؛ ربمـا هـو بحـث عـن الطفولة.

كـان ديـب يبحـث عـن صـيد ثمـين ولـو عـاش مثـل قطـه

«سيمبا»، وربما قد أكله في النهاية؛ ديب أكل سيمبا، وسيمبا أكل لسان ديب.

لم يضَعْ ديب اسمه على أي شيء من نتاج المعتوه، باستثناء تلك القصيدة الطويلة التي ألقاها في الأمسية. يبدو أنه كان يبيع تلك المنتجات على شكل بحوث وتقارير... يا لهذه الحياة! تتيح لك أن تحصل على كل شيء، بمجرد أن تنسى اسمك. وعندما تواصل معي لنشر مقالاته، التي تحاول الهروب من صوت المعتوه، كنتُ سعيدًا جدًا، كأني حصلتُ على كنز.

تمنيتُ لو أنقذت ديب، ولكن لقد فات الأوان. هنالك روايات متضاربة، منها: أنه كان يتجه إلى الشمال بالسيارة عندما اختفى تمامًا، أو أنه انتحر ولم يخرج مطلقًا من الأسوار، أو أنه خرج من الأسوار وما زال يعيش في مكان مجهول في أحد الجبال.

قرية الأسوار؛ قرية جميلة، وقد هُجِّر سكانها كلهم، كما حدث مع قرى كثيرة في الحرب الأخيرة، ولم تظهر أية قصيدة جيدة تتحدث عن ذلك حتى الآن. إذن، إنه كتاب مربح بكل تأكيد، وديب تعلم الدرس جيدًا.

بحسب ما قرأت، لقد سامحهم جميعًا، ولم يكترث لجرائمهم، أقصد نجم وسارة ورياض وربيع وريما وكل من مر ذكره، ولا يهمني هذا أبدًا، ولكن هل سامح نفسه يومًا...؟

ولكن القصة لن تنتهي، كما قلت لكم، وأترككم مع ديب.

بعد براءة نجم وسارة، عدتُ إلى التواصل معهما بصورة طبيعية، حتى أنني تحدثتُ مع نجم منذ فترة في الشارع لأكثر من ربع ساعة، وهو رقم قياسي لي، أنا الذي لا أستطيع احتمال أحد أكثر من خمس دقائق. انتبهتُ حينها إلى أن سيارته البيضاء تشبه حقًّا سيارة ذلك الطباخ السوداء، لذا من الطبيعي أن أخلط بينهما، كما حدث يومًا.

تحدثنا عن أعمالنا ورحنا نبالغ ونكذب. أخبرني أنه يتابع شيئًا ما يخصني يتعلق بمشروع الأرقام خماسية الأبعاد الذي عملت عليه مع ربيع، معلقًا: «إنه عمل جريء، ولو كان غير مفهوم»، أجبته بأن «الفايكنج قد فهموه وأثنوا عليه عندما عرضه ربيع في بلادهم»، مع أنني أعلم أنه يكفي أن تخبر أي أحد أن هذا العمل يتعلق برئيس جمهورية سفاح اسمه «دالي»، يقتل مئات الأفراد من شعبه يوميًا حتى يهتموا به، دون أن يخطر على بالهم أن يبحثوا عن تلك البلاد على الخريطة، وربما ليس ذنبهم أنها غير موجودة. خرجت من شرودي، لأسأله عن أسعار الأجهزة فقد كنت أنوي تغيير موبايلي، على مبدأ «لا تمتْ.. حتى يأتيك الموت»، ثم أتت مصادفةً سيرة المعلمة نورة، ليقول لي ضاحكًا: «بتكون ماتت».

زرت نجم أيضًا في مكتبه منذ أيام، فعرفني على زملائه، ثم عرفهم عليَّ بالقول: «هذا ديب س.إليوت.. شاعر سلح الزمان عليه». وفي النهاية، حصلت على الموبايل الجديد بسعر يفوق نصف ما أملكه حينها.

أما سارة فكانت علاقتها معي أكثر ودًا كالعادة. وقد اتصلت لتبارك لي يوم علمت بارتباطي بريما (يبدو أن كل شخص لديه معتوه ما ينقل إليه الأخبار)، ولكنها دائمًا كانت تلمح في محادثاتنا إلى خذلاني لها يوم أعطتني النقود لأسافر، ثم ضاعت النقود وعدت أسوأ مما كنت، لذا من الصعب الحصول على مساعدتها هذه المرة.

لماذا أحتاج إلى المساعدة؟ غيث زميل الدراسة كما ذكرت، الذي لم أكن أعرفه سوى من طريق فيسبوك، ففي فترة الجامعة لم نلتقِ أبدًا، ثم حدث والتقينا عدة مرات لنستمع إلى أغنية «تغريبنا» ونلعب البلياردو في بلاد الكاجو. مع هذا، عندما أعطيته النقود ليسافر... (اللعنة إننا نصل إلى أهم جزء في الموضوع عندما بدأت أشعر بالتعب.. لنأخذ استراحة قصيرة ونكمل.. استريحوا.. استريحوا.. رجاءً عدم الغش).

ليسافر... كنت أعلم أني أستثمرها، أو على الأقل أخبئها في مكان آمن.

أرسلتُ لغيث كل ما أعرفه عن الجهاز (أقصد المعتوه)، ولكن غيث عرفه مباشرةً، وذكر اسمًا طويلًا من ثلاثة أحرف وأربع أرقام، ثم قال إن ذلك المشروع قديم ولا يساوي شيئًا.

مضيفًا: «لا أعرف لصالح من يعمل رياض هذا؟ قد يظن نفسه عبقريًا ولا بأس في ذلك. فما فعله يهون علينا بعض الأمور، ولكن ما زال أمامنا اجتياز الجزء الأصعب، وبعدها ستكون النتيجة مذهلة».

مساء الخير

معكم غيث شخصيًا

لا أعـرف لمـاذا اختـار ديـب هـذا الوقـت بالـذات لكتابـة رواية. ربمـا أراد ديـب التقـاط كـل شـيء بلمحـة واحـدة، بعـد أن كـان يعـد اللمحـة أو القصـيدة قمـة القمـة أو كـل شـيء. مـا أريـده قولـه فقـط – كـي لا أتحـدث بمـا لا أفهمـه كمـا يفعـل ديـب دومًـا – إن الطـريقتين متشـابهتان: أن تصـل مـن الشـيء إلـى كـل شـيء، أو تصـل مـن كـل شـيء إلـى الشيء.

لقـد كتـب ديـب كثيـرًا مـن الترهـات علـى لسـاني فـي هـذه الصـفحات، ولـم أغيـر شـيئًا فيهـا، ففـي النهايـة إنهـا تعبـر عنـه وعـن ثقافتـه ولا تعبـر عنـي أبـدًا. هـل يعقـل مـثلًا أن لا يعـرف اسـم الجهـاز الـذي قضـى أجمـل أيـام عمـره معـه، وحقـق أفضـل إنجازاتــه؟ طبعًـا ممكــن، ويبــدو أن ديــب عنـدما سـمى الجهـاز كـان يسـمي نفسـه، وعنـدما يتحـدث بلساني ويصفني بالثرثار، يتحدث بلسانه ويصف نفسه.

نمتلك أنـا وديـب جـرأة كبيـرة لنـروي لكمـا قصـة نجـم وسـارة، أو جيـل نجـم وسـارة كمـا يفسـر الأصـلع، مـع أننـا لا نعـرف عـنهم شـيئًا. فكـل واحـد يملـك فكـرة خاصـة عـن ذلـك حصـل عليهــا عبــر تجاربــه. أمــا أن يشــكك الأصــلع بوجــود المعتــوه، فهــو دليــل علــى عــدم وجــود الأصــلع أصــلًا؛ المعتوه موجود، وكلنا زائلون.

حــررت الفصــل الأخيــر باســتخدام محــرر رقمــي، وكــان أداؤه قريبًا من أداء الأصلع...

لا أحد يعرف: أين ستنتهي الكتابة؟

وما مصير القصص؟

وما مصير الأحلام؟

لم يكن إقناع نجم بالتنفيذ صعبًا، فكل المطلوب منه إدخال الشحنة إلى قرية الأسوار على اسم شركته وإدخال الأجهزة إلى المزرعة. أما إقناع سارة فكان عملية صعبة وطويلة ومعقدة، فحتى الملائكة تتغير يا صاحبي.

بعد قليل سأحقق أحد أحلامي، وربما كلها، إن كان هنالك فرق بين الجزء والكل. مرت الساعة الأولى من الساعتين التي وعدتكم بأننا سنقضيها معًا، ولم يبق إلا القليل. لذا سأثرثر كما أريد. مثلًا: يمكن أن أخبركم بما حدث عندما قررت استئجار المزرعة من أبي لأنها المكان الأنسب، وكيف نزلت يومها لأجد أشخاصًا لا أعرفهم يسكنون هناك. نعم، لقد تغيرت أسرتنا في السنوات الأخيرة، وتخرج حسام من الجامعة ولديه الآن ابنة جميلة، ولكني كنت سأعرفهم رغم ذلك، وأكتفي بالقول: «كم لبثنا؟». لكن ما وجدته يومها حرفيًا أسرة أخرى، وتطلب أمر إخلاء المكان مع أنهم يسكنون هناك مجانًا مبلغًا جيدًا. أو يمكن أن أخبرك كيف أقنعتُ سارة بالعمل في المشروع بوصفها «منسقة عامة» بشرط أن لا تعرف شيئًا عن أي شيء وتنفذ تعليمات غيث حرفيًا، حسنًا هذا جيد.

تفوهتُ حينها بكلمات ما زلت أندم عليها، فالذنب ليس ذنبها في النهاية. بعد هذا العمر، ما زالت تقف حائرة

أمـام كلمـاتي، هـل تقابلهـا بالـذهول أم الضـحك؟ ربمـا قـد عـودت نفسـها علـى أنـي مجنـون يحـق لـه التفـوه بمـا يريـد. عنـدما يكـون الشـيطان ثالثنـا كنـت أرتـاح مـن الكـلام، لكـن أيـن أنـت يـا نجـم؟ أنـا ممنـوع مـن التواصـل معـك. وقـال لـي غيث ضاحكًا: لا داعي لهذا، فالنجوم في السماء كثر.

- ألـم تسـألي نفسـك مـن أيـن أتـت كـل تلـك القصـور التـي تعيشـين فيهـا، ولمـاذا أنـتِ فقـط مـن امتلكـت كـل تلـك الميـزات، حتـى أن السـفر بالنسـبة إليـك كـان لعبـة.. مزحـة.. تسـافرين بنصـف دقيقـة، ثـم تتكلمـين معنـا عـن الـوطن الجميـل، هـذا الـوطن الـذي لـم تحسـي بـه أبـدًا (مـن المؤسـف عـدم وجـود جمهـور، ليصـفقوا، مـع أنـه كـان يمكـن اختصـار كـل تلك الجمل المفتعلة بعبارة «ابنة بيكاسو»).
- ديب.. هل تعرف ما تقوله التقارير عنك؟

تسكت سارة، ثم تتابع بصوت متحشرج:

- شخص تافه.. كل ما يهمه ثمن سجائره.

هـل تخبرنـي الآن أن لهـا علاقـة بنصـف مخـابرات العـالم، كأني لا أعرف.. بماذا سأجيبها؟ أقول لها بعد تفكير:

- لقـد بعـتم كـل شـيء.. وهـذه فرصـة لتبيعـوا شـيئًا لـم تتوقعوا أبدًا أن يجد سوقًا.
- الأمور لا تسير هكذا.

- لماذا؟ إذا كانت الصفقة ستحقق الأرباح المنشودة مثل غيرها، ما المشكلة؟ هل تستكثرين عليَّ تحقيق أحلامي؟
- غلطتي كانت يوم أعطيتك ذلك المبلغ أول مرة، ألستَ القائل إن الأموال لا يجب أن تتدخل بين الأصدقاء.
- هذه فرصة لتستردي أموالك وفوقها عشرة أضعاف على الأقل.
- إذا فعلتُ ذلك سيكون لأجلك وليس لأجل الأموال.
- لماذا تهتمين كثيرًا بصورتك، هناك سأستقبل المعلومات ولن أرسلها.
- لا تظن أني غبية.. الأمر أعقد من ذلك، ولكن هذا ليس موضوعنا.
- كيف حال زوجك؟
- أفضل منك بكل تأكيد
- الطيور على أشكالها... المهم هل نستطيع بدء العملية؟

شكرًا على صبركم على هذه المسرحية، التي لا تشبه مطلقًا الحوار الحقيقي، والآن لنبدأ.

يتــرأس غيــث الاجتمــاع، ويشــرح لنــا باختصــار مــا بــت أعرفه عن ظهر قلب، وسأنقل لكم ما فهمته.

حضـر الاجتمـاع أشـخاص كثـر مـن جنسـيات مختلفـة، ولـم يُسمح حتى لسارة بالحضور، فدورها إداري فقط.

يتحدث غيث بالإنكليزية مخاطبًا جميع المستمعين:

يتكون المشروع من ثلاثة مراحل...

المرحلــة الأولــى: الوصــول إلــى جميــع البيانــات المخزنــة علــى ســيرفرات الإنترنــت علــى مســتوى العــالم، والتقــاط بيانــات أخـرى عبـر شـبكات الـواي فـاي فـي كـل مكـان لمعرفـة ظـواهر الأشـياء، مـن طريـق رصـد الأفعـال والأقـوال ولغـة الجسـد، وتحويـل ذلـك إلـى تقـارير مكتوبـة ومفهومـة، أي المشـروع المعـروف بـ (ويـذكر الاسـم الـذي يتكـون مـن ثلاثـة أحـرف وأربـع أرقـام). ثـم يقـول كلمـة أخـرى لا يفهمهـا أحد سواي، فأضحك: «المعتوه».

المرحلـة الثانيـة: الوصـول إلـى داخـل أدمغـة البشـر لمعرفـة الأفكـار التـي لـم يفكـروا بهـا حتـى، ولـم يسـتطيعون التعبيـر عنهـا بأيـة طريقـة. عبـر دراسـة المـواد الكيميائيـة وتحركهـا داخـــل أجســـادهم وخلايـــا أدمغـــتهم، مثـــل الهرمونـــات والســـيالات العصـــبية و... (يكمـــل بالعربيـــة علـــى طريقـــة الباعـة المتجـولين، ويعـدد أشـياء كثيـرة، بهـدف إضـحاكي.

إنه يعلم صعوبة الأمر، فرغم أنه حلم حياتي قد أنسحب بأية لحظة، ويضيع كل شيء).

ثم يتابع من جديد:

... سنرى ما الذي ستحصل عليه تلك الأجهزة من الأدمغة المستهدفة. لقد عملنا على المرحلة الثانية طويلًا، رغم أنها غير قابلة للتنفيذ عمليًا، ولكن تنفيذ جزء بسيط منها سيكون مفيدًا جدًا وأساسيًا لبدء المرحلة الثالثة.

المرحلة الثالثة: نعم، نحن مضطرون إلى القفز إلى المرحلة الثالثة، رغم أن المرحلة الثانية ما زالت تتطلب بحوثًا بيولوجية قد تستغرق سنوات، إضافةً إلى صعوبة إجراء التجارب على البشر. كل هذا لا يهمنا الآن، لدينا متطوع مناسب، ويعيش في بلاد مناسبة. في حال نجحت محاولتنا القادمة، سنكون قد تجاوزنا المرحلتين الأولى والثانية بضربة حرة مباشرة، أي الوصول إلى الأثير تلك الذبذبات الناتجة عن كل هذا، عندها سنستغني عن البشر نهائيًا. وأيضًا ينظر نحوي نظرة أب فخور بولده ومعلم يرى أفضل تلاميذه، ويقول بالعربية: «البعد الخامس».

ما نقصده ليس إشارات كهرومغناطيسية أو أي نوع من الإشارات المعروفة. إننا نقصد الأحلام والمشاعر

والأوهـام منـذ بدايـة الزمـان. لا بـد أن لتلـك الأشـياء التـي لا تُبـاع ولا تُشـترى، التـي لا تفنـى (ينظـر نحـوي) مكانًـا، وبتنـا قريبين جدًا من الوصول إليه.

شـاءت المصـادفة أن يكـون المتطـوع الـذي معنـا شـاعرًا، وتعلمـون أن الشـعر كثيـرًا مـا ألهـم العلمـاء والمستكشـفين والباحثين، وقد كتب يومًا:

«لـن تسـتطيع كـل رياضـيات الـدنيا وحواسـيبها أن تحسـب عمرنا الضائع».

لـذا قـد يصـل المتطـوع إلـى هنـاك، ولكـن طرائـق التخـزين سـتبقى قاصـرة، وقـد لا تكفـي كـل الترسـانة التقنيـة التـي جهزناهـا لاحتمـال نصـف سـاعة ممـا سـيراه، وقـد يحـدث الأمـر بنحـو معـاكس ونسـتقبل المعلومـات بـبطء شـديد، حتى نموت من الضجر.

نحـن جـاهزون لجميـع الاحتمـالات، خـزان المزرعـة ممتلـئ بـالمواد العضـوية مثـل سـيروم ضـخم يكفـي لتغذيـة المتطـوع سـنة كاملـة، مـا يسـمح بدراسـة تـأثير الفصـول علـى الاستقبال أيضًا.

لا أخفـيكم أن التجربـة قـد تتوقـف فـي أيـة لحظـة، أو بعـد نصـف سـاعة مـن بـدئها، أو قـد تفشـل نهائيًـا. قـد لا نصـل إلـى شـيء مـن كـل هـذا، ولكنهـا سـتبقى خطـوة أولـى علـى

هـذا الطريـق... نحـو تحريـر الإنسـان نهائيًـا مـن سـجن الزمن.

علامـات الدهشـة ترتسـم علـى وجـوه الحاضـرين، وتبـدأ الأسـئلة. أصـمت وأراقـب. أتمنـى لـو أسـتطيع إشـعال سـيجارة مـن سـجائر ربيـع، لكننـي الآن ممنـوع مـن أشـياء كثيرة ولا يسمحون لي تقريبًا سوى بأن أحلم.

عنـدما عـدت إلـى المزرعـة، كـان الخريـف فـي أوجـه، فتحسـرت علـى أيـام الربيـع والصـيف التـي قضـيتها فيهـا بـين الفواكـه المتنوعـة. الآن، يحضـرون لـي طعامًـا صـحيًا، ويجبروننـي علـى النـوم بـاكرًا، وهنالـك حـراس يغنـون عـن جهاز الإنذار.

يسـأل أحـدهم عـن طريقـة تغذيـة الجهـاز بالطاقـة، وهـل سـتكفي الطاقـة الشمسـية لـذلك؟ يجيـب غيـث (دون أن يخفـي سـعادته بهـذا السـؤال): إن الاعتمـاد علـى الطاقـة الشمسـية قـد يتوقـف فـي مرحلـة مـن المراحـل، ويجـري الاكتفـاء بالبطاريـات البشـرية (أي جسـم المتطـوع). بعـد انطـلاق التجربـة وعمـل الأجهـزة كـل مـا نحتـاج إليـه هـو تغذيـة جهـاز التقـاط الإشـارات الخاصـة بالجسـم، وجهـاز إرسال البيانات إلى المركز الرئيسي.

بعـد الاجتمـاع بنصـف سـاعة يتصـل بـي غيـث وينطلـق بثرثـرة لا تتوقـف، يتحـدث عـن الغـد، كأننـا لـم نعـشْ قبلـه أبدًا:

... حتـى لـو اسـتطعنا الوصـول بمعجـزة مسـتحيلة إلـى سـبعة مليـارات إنسـان بخـادم إنترنـت واحـد، وهـو مـا فشـلت كبـرى شـركات العـالم مثـل فيسـبوك وغوغـل فيـه، سـيبقى هذا فتاتًا أمام كنوز الأثير المرمية منذ مليارات السنين.

إنهـا دائمًـا مرحلـة واحـدة، ومـا يجـري قبلهـا أوهـام وغـرور وغطرسة وتفاهة وملل.

سـترى تـاريخ البشـر، وتكـون الكواكـب، والحضـارات الفضـائية، وكـل شـيء... سـتفهم كـل شـيء أيهـا الغبـي (يقـول وهـو يتمنـى أن أكـون أمامـه ليضـربني بقبضـته).. سـتفهمه.. وسيصـل كـل هـذا، إلينـا. مـا قيمـة حياتـك...؟ نعـم، مـا قيمـة حياتـك...؟ ألـن تعـيش تريليـون حيـاة فـي كـل لحظـة إذا نجـح هـذا؟ ألـن تـرى كـل شـيء؟ قـد نحتـاج إلـى عشـرات السـنين فقـط لقـراءة مـا ترسـله لنـا فـي يـوم واحـد. لـولا خوارزميـات التصـفية لانفجـرت الأجهـزة كلهـا بعـد ساعات من بدء التجربة.

عنـدما جئـت إلـى هنـا، كنـت أريـد المجـد الشخصـي. لـم أتوقـع أنـي سأحصـل علـى مجـد يتجـاوز كـل شـيء.

صـدقني أنـا الآن لا أفكـر فـي نفسـي أريـد فقـط أن أكمـل هذا الطريق لنرى إلى أين سيصل بنا.

(فـي الحقيقـة، بـت أخشـى أن تفشـل الخطـة فـأعيش أنـا، وينتحـر غيـث. إنـه احتمـال لا يطـاق، إذ سـيُقبض علـي وأقـول كـل شـيء، ربمـا سـأقدم لهـم هـذه الأوراق فيصـدقوني، أو يرسـلوني إلـى مشـفى المجـانين، أو يضربوني رصاصة لإراحة رؤوسهم كما فعلوا مع وسام).

يتابع غيث:

قـد تفشـل الخطـة بسـبب أي تفصـيل لـم نحسـب حسـابه، ولكـن إذا نجحـت فإنهـا تسـتحق أن أقضـي عمـري فـي نشـرها. سيصـل الكتـاب إلـى الجميـع، كمـا حصـلنا عليـه مـن الجميـع. لـن يكـون كتابًـا مكتوبًـا صـعب القـراءة. كـل مـن يريـد قراءتـه عليـه أن يضـع رأسـه ضـمن كـرة مختبـر مثـل التـي ستضـع رأسـك فيهـا غـدًا، ويـرى مـا رأيتـه. لـيس لحظـة بلحظـة، فهنـاك لا زمـن، ولا أدري مـاذا سأسـمي ذلـك التـدفق الـذي سنحصـل عليـه. لنسـميه: «اسـتمناء الكـون»، أليسـت فكـرة جيـدة؟ ألـيس هـذا أفضـل مـن مشـروعك المسـمى «المعتـوه»، الـذي كـان سيصـنع روايـات رديئـة لـدينا الكثيـر منهـا، أو كتابـك السـماوي الـذي لـم يفهـم منه أحد شيئًا؟

إما أن تدخل المرحلة الثالثة، أو تكون كل حياتك ضاعت هباءً.

يا صديقي أنا لا أبالغ؛ مدينتك على وشك السقوط، ومعظم الناس غادروا.

غدًا ستنزل إلى الخزان الذي أصبح مكوَّنًا من حجرتين: حجرة التغذية التي تضم السيروم الخاص، وحجرة العمل. تجلس على الكرسي في غرفة العمل ونضع الكرة على رأسك وتبدأ العملية. سيتولى فريق مختص هدم المزرعة ووضع الأنقاض فوق الخزَّان للتمويه.

بينما يتحدث، تصل رسالة من سارة:

- مبروك يا صديقي.. أنت الوحيد بيننا الذي سيحقق أحلامه.

«هل تقصد دمار المدينة؟»، قلتُ في نفسي. لم تعد الحروف واضحة أمامي ولا كلمات غيث، فأصرخ في الجميع: أريد أن أنام.

كانت ليلة مليئة بالكوابيس. المعلمة نورة تخبرني عندما فشلتُ في مسابقة الرياضيات: «ليس المهم الوصول إلى الجواب، المهم هو أن تكتب طريقة الحل». نجم يخبرني أنني تافه جدًا وكذاب، وسارة تقول: «لم أتوقع أن تفعل هذا أيها الطفل البكّاء»، وريما تقول: «نعم، تستطيع أن تفعل ما تريد، لأنك تعيس ولا أحد يحبك»، عمتي تحاول الدخول إلى بيتها وأقدامها تسبح في الهواء بينما يمنعها الجني الأحمر من التحرك، وأنا جالس على كرسي كبير في ساحة بيتها - يشبه العرش - مستغرقًا في الضحك. عندها يقوم المعتوه من مكانه في الغرفة، ويسير نحوي، ثم يضرب كفه بكفي.

لكن محاضرات غيث ظلّت مصرة على الاستمرار في رأسي: «تستطيع أن تهرب مثل الجميع، لكن يستحيل أن ننقل الأجهزة، لا نملك وقتًا لذلك. سيستغرق بناء التجربة من جديد وقتًا طويلًا من التحضير، لذا إما الآن، أو انسَ الموضوع، وسنكمله نحن بمعرفتنا في ظروف أخرى».

رياض يقتحم الغرفة، ويفصل الجهاز عني، ويحاول إيقاظي بلكمات على وجهي.

يبدو أنه نجح. أستيقظ منذ الساعة السابعة وأبدأ بكتابة هذا ريثما تبدأ التجربة في التاسعة.

يمتص الأثير الأشياء مثل الإسفنجة، وفي لحظات كهذه يكون شرهًا جدًا ويبتلع أي شيء. كما يحدث مع أسرة حلت بها مصيبة، إذ سيأتي الأثير مباشرةً، ويتذوق المائدة. ولكن في اليوم الثاني، سيكون أكثر شراهة. أذكر قصيدة كتبتها منذ سنوات طويلة بعنوان: «اليوم الثاني للكابوس». تخيل الآن، أن تسافر الأسرة إلى مكان آخر، عندها ما الذي سيحدث؟ سيأتي الوحش ولن يجد شيئًا. هل يعقل أني سأموت من أجل قصيدة كتبتها منذ سنوات، ولم أنشرها؟

للأسف في حالتنا هذه، لا نملك يومًا كاملًا، ولكن أمامنا كابوس جيد، وجبة دسمة بكل معنى الكلمة. صحيح أن المجاعة بدأت منذ أيام مع مغادرة معظم الناس، لكننا نريد تلك اللحظة التي تفصل بين خروج آخر شخص من القرية، ودخول الجيش، وعندها، سيحدث التسلل المطلوب، ما يسميه غيث «تهكير الأثير».

بعدها سيتولى الفريق المختص وضع اللمسات الأخيرة على ركام المزرعة، قبل أن ينسحبوا بسرعة. لن يؤثر هؤلاء على التجربة، فهم يتصرفون باحترافية وسيكونون مثل الأشجار أو الأحجار بالنسبة إلى الأثير الذي لن يلاحظ وجودهم.

هل سيكون رياض حقًا من يقتحم الغرفة، ليرى نجاح تجربته بصورة لم يتوقعها. أم أن سارة ستتمكن من الوصول إلى هنا وإنقاذ كل تلك الأدوات، ووضعها في مكان آخر. هل سيذهب كل الفضل في حال نجاح التجربة إلى ذلك المركز الذي تديره شركة مجهولة، وأغدو سطرًا منسيًا في التاريخ، يتذكرونه بنوع من التبجيل والشفقة، كمن جرَّب سمًّا على جسده وقضى. هل سأرى ريما مباشرةً أم من الأفضل أن أنتظر سنوات حتى تعود إلى حبي؟ وهل ريما في عالم بلا زمن تتذكرني، أم سأكون نقطة عمياء بالنسبة إليها؟

كنتُ أتذكر كل تلك الأسماء عندما تذكرت اتصال غيث الأخير:

- لماذا لم يكتبها صديقك المعتوه؟ إنه شاعر حقيقي
- غيث.. اغرب عن وجهي
- أيها اللعين.. حتى نجم وسارة حولتَهم إلى مرتزقة

أنا الذي كنت أشك بنجم وسارة، وحتى برياض وربيع، كيف لم أشكّ بغيث لحظة واحدة؟ أردتُ السفر لأنني ظننت أني الأذكى، وعندما رأيتُ غيث تنازلتُ له عن الفرصة. لقد أبهرني يومها، وقد يكون كل ذلك وهمًا.

أحس بشيء يلمس أقدامي، ربما كان سيمبا، أين ذهب سيمبا؟ حاولتُ إقناعه أن يأتي معي إلى المزرعة، لكنه رفض بشدة.

لا أستطيع ولا أريد أن أفكر، الآلة تجذبني كالمغناطيس، حلم حياتي الذي تحقق الآن... حتى لو قُتلت، ولم تعمل الآلة، سأموت متوحدًا مع ذلك الحلم إلى الأبد.

لا أعرف الليل من النهار، الظلام في جميع الجهات، عيوني مغلقة أم مفتوحة؟ كم ساعة مكثتُ هنا؟ لا أعرف. تأتي صور متلاحقة كل عدة ساعات، لا أعرف ما الذي سأستفيده منها، طالما لا أستطيع الكتابة هنا. لكن، يجب أن تكتمل التجربة.

لا أستطيع أن أخبركم أين أنا الآن، ولا أعرف: هل الأحداث التي قرأتموها حقيقية، أم لا؟ ربما أخطأت أيضًا بين ديب س.إليوت وشخص آخر. إنه أمر بسيط، يحدث مع أفضل الشعراء.

ديب س.إليوت

تمت